
كتابى
٣٥
الجزء الرابع
الحرب والسلام
القصة الخالدة لـ «تولستوى»
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الحرب والسلام

القصة الخالدة لـ «تولستوى»

الجزء الرابع

- ٧ -

وفى الثانى عشر من نوفبر ، كان جيش كوتوزوف المعسكر قرب أولمتز يستعد كى يستعرضه فى اليوم التالى الإمبراطوران الروسى والنمساوى . والحرس الذين وصلوا من روسيا بالأمس فقط قضوا ليلتهم على مسافة خمسة عشر فرسخاً من أولموتز . وفى العاشرة من صباح اليوم التالى توجهوا تواً ليتم عرضهم فى سهل أولمتز :

وفى ذلك اليوم كان نيقولاى روستوف قد تلقى رسالة من بوريس تبلغه أن لواء إسمعيلوفسكى كان معسكراً لقضاء تلك الليلة على مبعدة خمسة عشر فرسخاً من أولمتز ، وأنه يريد أن يراه ليعطيه خطاباً ومبلغاً من المال . وكان روستوف فى أشد الحاجة إليه فى ذلك الحين ، وقد استقرت القوات بعد الخدمة العاملة قرب أولمتز ، وصار المعسكر يموج بالكانتينات الحافلة بالسلع ، وباليهود النمساويين ، الذين يعرضون كل صنوف المغريات . وكان هوسار بفلوجراد يقضون وقتاً فى الصخب والمرح الزائط ، محتفلين بالترقيات والإنعامات التى حصلوا عليها فى الميدان ، ويقومون برحلات إلى أولمتز لدى من تسمى كارولين المجرية التى افتتحت أخيراً مطعماً هناك تقوم ساقيات بالخدمة فيه . وكان روستوف قد احتفل لتوه بتعيينه نافخ البوق ، واشترى جواد ديتزون « البدوى » وصار غارقاً فى الدين لرفاقه ولأصحاب الكانتين . فما إن تسلم رسالة بوريس حتى

ركب إلى أولمتز مع زميل له ، وتغدى هناك وشرب زجاجة نبيذ ، ثم ركب بمفرده إلى معسكر الحرس ليقابل رفيق طفولته . ولم يكن روستوف قد حصل بعد على زيه الرسمى ، لذا كان يرتدى سروال ركوب رث مبطناً بالجلد البالى ، ومتقلداً حسام ضابط ذى عقدة . وكان الحصان الذى يركبه من سلالة الطونة ، اشتراه من قوزاقى أثناء الزحف . وعلى أحد جانبى رأسه قلنسوة هوسار مائلة بمرح . وراح يفكر وهو راكب إلى لواء إسمعيلوفسكى فى كيف يبهر بوريس وكل رفاقه فى الحرس بأن يبدو مثالا للهوسار الذى خاض النيران واخشوشن بها على الجبهة .

وكان الحرس قد قام بزحفهم وكأنه رحلة للنزهة ، مبرزين أناقتهم وانضباطهم ، لذا تقدموا فى مراحل قصيرة ، وجربنداياتهم تحملها عربات نقل ، وعند كل توقف قدمت الحكومة النمساوية وجبات ممتازة للضباط . وكانت الألوية تدخل المدن وتغادرها على عزف فرق الموسيقى ، وطبقاً لأمر الغراندوق تم كل الزحف ، والجنود محافظون على انتظام الخطوة ، والضباط يسيرون معهم فى مواضعهم المخصصة . وهذه مسألة كان يزهو بها الحرس كثيراً : وكان بوريس قد سار طيلة الزحف وأقام مع برج ، الذى وصل فى ذلك الوقت إلى رتبة النقيب وقد رقى لقيادة سريته أثناء هذا الزحف ، ونجح فى كسب ثقة رؤسائه الضباط لأمانته الشديدة ودقته ، وأقام وضعه المالى على أساس مرض . واستطاع بوريس فى هذه المدة

نفسها أن يتعرف بأشخاص كثيرين من المحتمل أن يكونوا ذوى نفع له . وعن طريق خطاب توصية جاءه من بيير تعرف على الأمير أندريه بولكونسكى الذى كان يأمل أن يحصل بواسطته على عمل فى هيئة أركان حرب القائد العام . وكان برج وبوريس اللذين حظيا براحة كافية بعد زحف اليوم السابق جالسين بأناقة سمت وزى فى المسكن النظيف الذى خصص لهما، يلعبان الضامة على منضدة مستديرة. وكان برج ممسكاً بين ركبتيه غليون تدخين . أما بوريس فانصرف إلى بناء هرم من أحجار الضامة بأصابعه الرقيقة البيضاء ، فى انتظار أن يقوم برج بلعبته، وراح يرقب وجه شريكه وهو يفكر فى اللعبة ، فمن عادته أن يركز انتباهه على ما هو مشغول به . وقال :

— والآن ! كيف ستخرج من هذا المأزق ؟

فأجابه برج وهو يلمس الحجارة ثم يرد يده عنها .

— سأحاول .

وفى هذه اللحظة انفتح الباب . وصاح روستوف :

— ها هو أخيراً ! وبرج أيضاً .

ثم صاح بالفرنسية مردداً عبارة بالفرنسية كانت مربيتهما العجوز تقولها دائماً ويقولها هو بوريس على سبيل المزاح : « هيا يا أطفالى الصغار ... ارقدوا وناموا » .

ونهض بوريس للترحيب بروستوف :

— يا إلهى ! لكم تغيرت !

ولكنه لم ينس عندما وقف أن يرتكز على المنضدة ، ويعيد حجارة الضامة الساقطة إلى أماكنها . وهم بمعانقة صديقه ، ولكن نيقولاى روستوف تراجع متباعداً بذلك الدافع اليافع لتجنب الدروب المطروقة ، والرغبة فى تحاشى التقليد ، والتعبير عن مشاعره بأسلوب جديد من ابتداعه شخصياً ، حتى لا يكون سلوكه صورة لسلوك من هم أكبر منه سناً . فقد أراد نيقولاى أن يصنع شيئاً بارزاً عند لقاء صديقه . لقد أراد على نحو ما أن يقرصه، وأن يدفع فى صدر برج، المهم أى شىء ما عدا القبلة على نحو ما يفعله الناس دائماً فى مثل هذه الظروف . أما بوريس فعلى العكس عانق روستوف بأسلوب ودى هادئ وقبله ثلاث مرات .

كادت تنقضى ستة أشهر منذ رأى كل منهما الآخر . ولما كانا الآن فى المرحلة التى يخطو فيها الشبان الصغار خطواتهم الأولى على درب الحياة ، لذا وجد كل منهما تغيرات كبيرة فى الآخر ، وانعكاسات جديدة للمجتمع المختلف الذى خطا فيه كل منهما خطواته الأولى . لقد تغيرا كلاهما منذ كانا معاً أول مرة ، وكل منهما كان يريد أن يظهر بأسرع ما يمكن مقدار ذلك التغيير الذى طرأ عليه .

وقال روستوف بزهو عسكرى ونبرات جهيرة رآها بوريس جديدة على صوته :

— آه منكم يا من تلمعون الأرضيات ! أى أناقة ونظافة كأنكم كنتم فى نزهة ، ولم تكونوا مثلنا نحن شياطين الجبهة المساكين !

وأشار إلى سروال ركوبه الملطخ بالطين . وأطلت المرأة الألمانية ربة البيت برأسها من الباب وقد سمعت صوت روستوف العــالى ، فقال وهو يغمز بعينه :

— امرأة مليحة ؟ هه ؟

فقال بوريس :

— ولماذا تصيح هكذا ؟ أنت بهذا تزعجهم . وأنا لم أكن أنتظر قدومك اليوم ، فلم أرسل إليك رسالتى إلا بالأمس فقط ، على يد معاون لكوتوزوف من أصدقائى ... بولكونسكى . ولم أتوقع منه أن يرسل إليك بهذه السرعة . وكيف حالك ؟ هل خضت النيران فعلا ؟

ومن غير أن يجيب هز روستوف بطريقة عسكرية صليب القديس جورج المعلق فى شريط على زيه الرسمى ، ثم أشــار إلى ذراعه فى الحمالة ، ونظر إلى بيرج وقال :

— كما ترى !

فقال بوريس باسماً :

— طبعاً . طبعاً . ونحن أيضاً قمنا بزحف عظيم . وقد مكث صاحب السمو طول الوقت مع لوائنا ، وبذلك توفرت لنا كل وسائل الراحة والامتيازات . وفى بولندا لا تسل عن الاستقبالات ، والمآدب والمراقص ! وكان ابن القيصر فى غاية الظرف مع جميع الضباط :

وشرع الصديقان فى السرد والوصف ، يقص أحدهما مباهج

الهوسار وحياة الجبهة ، ويقص الآخر مناعم ومزايا الخدمة تحت القيادة الملكية . وقال روستوف أخيراً :

— آه منكم أيها الحرس ! اطلب لنا شيئاً من النبيذ !

فقطب بوريس حاجبيه وقال :

— إن كنت حقاً تريد شيئاً منه .

وذهب إلى فراشه وأخرج كيساً من تحت الوسائد النظيفة وأمر ببعض النبيذ ، ثم قال :

— معى خطاب ونقود سأعطيهما لك .

وتناول روستوف الخطاب وألقى النقود على الأريكة ، ووضع مرفقيه على المنضدة وشرع يطالعه . وبعد أن قرأ بضع سطور ، نظر بغضب إلى بيرج ، فلما تلاقت عيونهما غطى روستوف وجهه بالخطاب: وقال بيرج ناظراً إلى الكيس الثقيل الغائص فى الأريكة :

— ها هم أرسلوا إليك مبلغاً كبيراً من المال ، أما نحن فنقتر على أنفسنا من رواتبنا يا كونت ، وأستطيع أن أقول لك من جانبي ...

فقال روستوف :

— اسمع يا بيرج يا عزيزى ! عندما يصلك خطاب من الوطن وتقابل أحداً من أهلك ، وتحب أن تفيض معه فى الكلام عن كل شىء ، وأكون أنا موجوداً ، سأغادر المكان على الفــور ، حتى لا أعترض طريقك . أسامع أنت ؟ اذهب من فضلك إلى أى مكان .. اذهب إلى الشيطان.

وأمسك به على الفور من كتفه وهو ينظر فى وجهه يا عزيزى لكى يخفف من خشونة كلماته ، وأردف :

— أنت طبعاً لست غاضباً يا عزيزى ! فأنا أتكلم من قلبى تلقائياً مع صديق مثلك !

فقال بيرج ، ناهضاً وهو يتكلم بصوته العميق :

— طبعاً يا كونت ! أنا فاهم طبعاً !

فقال بوريس :

— لك أن تذهب لزيارة أهل الدار ، فقد دعوك لذلك .

وارتدى بيرج سترة نظيفة تماماً ، ومشط خصلات شعره أمام المرآة على طراز شعر القيصر ألكسندر بفلوفتش ، ولما استوثق من تعبير وجه روستوف أنه لاحظ أناقة سترته ، غادر الحجرة وعلى محياه ابتسامة لطيفة .

وقال روستوف وهو يطالع الخطاب :

— يالى من حيوان !

— أوه . لماذا ؟

— كم كنت حلوفاً لأنى لم أرسل إليهم خطاباً وجشمتهم كل هذا الفزع . يا لى من حلوف !

واحمر وجهه فجأة وأردف :

— هل بعثت جافريلا ليحضر شيئاً من النبيذ ؟ هذا حسن ! فلنشرب !

وكان مرفقاً بخطابات أسرته خطاب توصية إلى الأمير بجراتيون بناء على نصيحة آنا ميهابلوفنا ، وقد حصلت الكونتس على هذه التوصية عن طريق معارف وأرسلتها إلى ابنها راجية إياه أن يحملها إلى العنوان المبين ، وأن يستخدمها . وقال روستوف ملقياً التوصية تحت المنضدة :

— أى لغو ! أى نفع لى فى هذا ؟

فسأله بوريس :

— ولماذا ألقيت هذه الورقة ؟

— إنها رسالة توصية من نوع ما ، وما حاجتى بحق الشيطان لشىء من هذا القبيل ؟

فالتقطها بوريس وقرأ العنوان وقال :

— أتقول ما حاجتك إليها بحق الشيطان ؟ هذا الخطاب يمكن أن ينفعك نفعاً جزيلا .

— أنا لست بحاجة إلى أى شىء . ولن أكون ياوراً لأى أحد .

— ولم لا ؟

— لأنها من وظائف الخدم والأتباع !

فقال بوريس وهو يهز رأسه :

— ما زلت مثالياً كالعهد بك دائماً !

— وأنت ما زلت دبلوماسياً كالعهد بك ولكن دعنا من هذا . كيف حالك ؟

– كما ترى. كل شىء على ما يرام حتى الآن. ولكنى أعترف بأنه يسرنى جداً أن أصير ياوراً، ولا أبقى فى خط النار مع الجيش المقاتل.

– لماذا؟

– لأن على المرء متى دخل فى السلك العسكرى، وجب عليه أن يجتهد فى أنجح ما يمكنه.

فقال روستوف مفكراً بلا ريب فى شىء آخر:

– هكذا ...

ونظر بإمعان وتساؤل فى عينى صديقه، وكأنه يفتش فيهما عن حل مسألة معينة. وجاء جافريلا بالنبيذ. وقال بوريس:

– أفلا نرسل إلى ألفونس كارلتش (بيرج) الآن ليشرب معك، لأنى لن أستطيع؟

فقال روستوف بابتسامة مزدرية:

– أرسل إليه. أرسل إليه. وكيف أحوالك مع هذا التيوتونى؟

– إنه لطيف جداً جداً، وأمين ورفيق ممتع.

فنظر روستوف بإمعان فى عينى بوريس مرة أخرى وتنهد. وعاد بيرج، وعلى الشراب غدا الحديث بين الضباط الثلاثة أكثر تدفقاً. وحدث ضابطا الحرس روستوف عن الزحف، وكيف جرى الاحتفال بهما فى روسيا وبولندا وفى الخارج، وعن أقوال وأعمال قائدهما الغراندوق، ورويا النوادر عن طيبة قلبه وسرعة غضبه.

ولاذ بيرج بالصمت كعادته دائماً عندما لا يمسه الموضوع شخصياً، ولكن بمناسبة سرعة غضب الغراندوق روى بتلذذ كيف جرت بضع كلمات بينه وبين الغراندوق فى غاليسيا عندما فتش سموه الألوية واستشاط غضبه بسبب بعد الاضطراب فى حركاتهم. وبابتسامة لطيفة على محياه وصف بيرج كيف ركب الغراندوق إليه فى غضب هائج وهو يصيح: «أرنئوط!» (وهى اللفظة الأثيرة عند ابن القيصر للسباب إذا ما غضب) ثم سأل عن النقيب. وأردف بيرج قائلا:

– صدقنى يا كونت أنى لم أكن مذعوراً على الإطلاق، لأنى كنت أعلم أنى على حق! ومن حقى أن أقول، بلا مباهاة: إنى أحفظ كتاب تدريبات اللواء عن ظهر قلب، وكذلك أعرف الأوامر السارية مثلما أعرف تماماً «أبانا الذى فى السموات». ولذلك ما كان يا كونت لم يكن هناك أى إهمال فى أتفه التفصيلات فى سريتى. ولذا كان ضميرى مستريحاً. وتقدمت منه!

وانتصب بيرج واقفاً وقلد تماماً كيف تقدم ويده مرفوعة قمة قبعته. والحق أنه كان من العسير تصور وجه كان عندئذ أكثر إعراباً عن الاحترام والرضا عن النفس. واستطرد بيرج:

– وراح يوبخنى، ويوبخنى، ويقرعنى ويصيح بى «أرنئوط واللعنة» و«إلى سيبيريا!» وكنت أعلم أنى على صواب لذا لم أتكلم. وكيف عسانى كنت أستطيع الكلام؟ فصاح بى «لماذا أنت أبكم؟»

وتركته يصيح وأنا صامت . فماذا تظن بعد ذلك يا كونت ؟ لم يرد شيء عن ذلك كله فى أوامر هذا اليوم . وهذه جدوى أن يتمالك المرء أعصابه . هذا هو الواقع يا كونت .

وجذب بيرج أنفاساً من غليونه وأطلق حلقات من الدخان. فقال روستوف باسماً :

– هـذا بديع !

ولكن بوريس لاحظ أن روستوف ميال للسخرية ببيرج ، فحول اتجاه الحديث ببراعة . ورجا روستوف أن يخبرهما كيف وأين جرح ، فسر ذلك روستوف وبدأ يروى لهما ما حدث وهو يزداد حماسة كلما أمعن فى الحديث – فوصف لهما معركته فى شنجراين على النحو الذى يطيب لهما سماعه من أى محارب اشترك فى معركة ، أى على نحو ما كان يتمنى الراوى للمعركة أن تكون ، ولكن ليس على الإطلاق كما وقعت فعلا . ولما كان روستوف فتى صادقاً ، لذا ما كان يحب أن يكذب عن قصد . لذا بدأ وفى نيته أن يروى كل شيء كما حدث بدقة ، ولكنه بلا وعى انزلق فى الكذب . فلو أنه قال الصدق لمستمعيه ، اللذين كانا قد سمعا مثله أوصافاً عديدة لهجمات الخيالة ، وتكونت لديهما فكرة محددة عن هذه الهجمات كيف تكون . ولذا فهما يتوقعان وصفاً مشابها لذلك ، إذن لما صدقاه ، أو لاعتقدا ما هو أسوأ ، أعنى أن روستوف نفسه ملوم لأنه لم يقم بالأعمال عينها التى أداها عادة من يصفون هجمات الخيالة . أجل لم يكن بمقدوره

أن يقول لهما إنهم كانوا هاجمين بأقصى سرعة خيولهم ، وإذا به يقع عن حصانه ، فتلتوى ذراعه ، وأنه أخذ يعدو بأقصى سرعته وقوته بعيداً عن الفرنسيين حتى ارتمى فى أيكة . ثم إنه لكى يروى كل شيء كما حدث كان عليه أن يبذل قدراً كبيراً من ضبط النفس حتى لا يتجاوز ما وقع فعلا . إن سرد الحقيقة أمر عسير جداً ، قلما يستطيعه الشبان . وكان سامعاه يتوقعان أن يسمعا كيف بلغت استثارته مداها ، حتى نسى نفسه ، وهب كالعاصفة على مربع العدو ، وشق طريقه وسطه وهو « يفرم » الرجال يمنة ويسرة ، وكيف أن مهنداً غاص فى لحمه ، فخر مغشياً عليه ، وما إلى هذا ... وقد وصف هذا كله . وفى منتصف قصته ، بينما هو يقول :

– لا يمكنكما أن تتصورا مبلغ الجنون الذى يستولى على المرء فى لحظة الهجوم !

إذا بالأمير أندريه بولكونسكى يدخل الحجرة . وكان بوريس فى انتظاره . والأمير أندريه يحب أن يشجع ويساعد الشباب الأصغر منه سناً . وقد أرضى غروره أن يلجأ إليه بوريس مستعيناً بنفوذه ، وصار ميالا لمساعدته بعد أن ترك لديه انطباعاً طيباً فى اليوم السابق ، وصار تواقاً إلى أن ينفذ للشاب رغبته . ولما كان قد كلف بحمل أوراق من كوتوزوف إلى ابن القيصر ، فقد انتهز الفرصة لزيارة بوريس ، على أمل أن يجده بمفرده . ولما دخل الحجرة ورأى الهوسار بزهوه العسكرى يسرد أعماله الحربية (ولم يكن الأمير أندريه

يطيق من يصنعون هذا) ابتسم لبوريس بمودة ، ولكنه تجهم وغض جفنيه وهو يستدير إلى روستوف بانحناءة يسيرة ، وجلس فاتر الهمة على الأريكة ، نادماً على أنه وقع فى هذه الصحبة غير المستحبة . ولاحظ روستوف ذلك فاحمر وجهه ولكنه لم يكترث ، فهذا الرجل ليس شيئاً فى نظره . ونظر إلى بوريس فرآه أيضاً بادى الخجل من الهوسار الباسل . وبرغم أسلوب الأمير أندريه المستاء الساخر ، وبالرغم من الازدراء الذى ينظر به روستوف – من وجهة نظره كمقاتل فى الجيش العامل – إلى كل طائفة ياوران الأركان التى لا شك أن القادم ينتمى إليها ، إلا أنه أحس الارتباك واحتقن وجهه ولاذ بالصمت . وتساءل بوريس عن أخبار أركان الحرب وهل للأمير أن يخبرهم – بدون إفشاء للأسرار – بشىء عن خططهم . فأجاب بولكونسكى مؤثراً التحفظ أمام الغرباء :

– أكبر الظن أنهم سيتقدمون .

وانتهز بيرج الفرصة ليتساءل فى اهتمام خاص عن صحة ما أشيع من أن منحة العلف لنقباء السرايا ستضاعف . ورد الأمير أندريه بابتسامة قائلا : إنه لا يملك إبداء الرأى فى مسائل الدولة التى على هذا الجانب من الخطورة . وضحك بيرج مسروراً . والتفت الأمير أندريه إلى بوريس وقال له وهو ينظر إلى روستوف :

– أما عن موضوعك ، فسنتحدث عنه فيما بعد . تعال عندى بعد العرض وسنصنع ما نستطيع .

ودار بعينيه فى الحجرة وقال لروستوف الذى تحول حرجه الآن إلى غضب ، وقال له :

– لقد كنت تتحدث عن شنجراين فيما أظن ؟ أكنت هناك ؟

فقال روستوف بنبرة سخط لعله قصد أن تكون إهانة للياور « نعم ! » ، وأدرك بولكونسكى ما دار فى ذهن الهوسار ويبدو أنه أمتعه ، فابتسم بمزيد من الزراية وقال :

– آه ! لقد كثرت الروايات الآن عن هذا الاشتباك .

فقال روستوف بصوت عال وهو ينقل بصره بين بوريس وبولكونسكى بغضب شديد مفاجئ :

– نعم روايات ! روايات كثيرة . ولكن حكاياتنا حكايات رجال كانوا تحت نيران العدو . ولذا فهى حكايات لها وزنها . وليست حكايات مغرورين صغار متسلقين ملحقين بأركان الحرب ، يقبضون الرواتب ولا يعملون شيئاً !

فقال الأمير أندريه بابتسامة هادئة دمثة للغاية :

– وهى الفئة التى تلحقنى بها !

واختلط غيظ روستوف باحترام لما يتميز به هذا الشخص من ضبط النفس . وقال :

– أنا لست أتكلم عنك . فأنا لا أعرفك ، وأقر بأننى لا أريد أن أعرفك . بل كنت أتكلم عن ضباط أركان الحرب عموماً !

فقاطعه الأمير أندريه باقتضاب وبنبرة تدل على السلطان :

– دعنى أقل لك هذا : إنك تحاول أن تهيننى ، وأنا مستعد أن أوافقك على أن هذا ميسور جداً ما لم يكن لديك احترام كاف لنفسك . ولكنك ستوافقنى على أن هذا الوقت وهذا المكان لا يلائمان ذلك . لقد أسأت الاختيار . فبعد يوم أو يومين سيكون علينا أن نشترك جنباً إلى جنب فى مبارزة أكبر وأخطر . ثم إن دروبتسكوى الذى قال لى إنه صديق قديم لك ، لا لوم عليه إطلاقاً فى أن سحنتى لسوء طالعها لا تروقك . ومع هذا (ونهض واقفاً) أنت تعرف اسمى وتعرف أين تجدنى ، ولكن لا تنس أننى لا أعتبرك ولا أعتبر نفسى قد لحقت بنا إهانة ، ونصيحتى لك كرجل أسن منك أن تطرح الموضوع من ذهنك . وأما أنت يا دروبتسكوى فإنى أنتظرك يوم الجمعة بعد العرض . وإلى أن نلتقى ...

وانحنى الأمير وخرج .

ولم يفكر روستوف فيما كان ينبغى أن يجيبه به إلا بعد انصراف الأمير . وزاد هذا من غضبه لأنه لم يقله ، وأمر بإعداد جواده فوراً ، وودع بوريس بفتور وركب راجعاً إلى وحدته . وكان ما يشغله طول الطريق أيركب غداً إلى القيادة العامة يتحدى الياور المغرور أم يطرد الموضوع من ذهنه فعلا ؟ وفى إحدى اللحظات دفعته تصورات الانتقام إلى الاستمتاع برؤية الفزع على محيا ذلك الشخص الضعيف المغرور وهو يواجه طبنجته ، ولكنه فى اللحظة التالية شعر بأنه ما من أحد ممن عرفهم يسره أكثر مما يسره أن يكون هذا الياور البغيض صديقه .

–٨–

فى اليوم التالى للزيارة التى قام بها روستوف لبوريس ، جرى عرض القوات النمساوية والروسية ، واشتركت فيه الإمدادات الجديدة من روسيا والقوات التى كانت معسكرة مع كوتوزوف ، وحضر هذا العرض كل من الإمبراطورين : الإمبراطور الروسى ومعه ابنه ، والإمبراطور النمساوى ومعه الأرشيدوق ، واشتركت فيه القوات المتحالفة التى بلغ مجموعها جيشاً من ثمانين ألف رجل .. ومنذ الصباح الباكر كانت جميع القوات فى أوج أناقتها ونظافتها ، تتحرك فى السهل الممتد أمام الحصن . فألوف السيقان والرماح تتحرك بالرايات الخفاقة وتتوقف عند صدور الأمر ، وتدور وتتشكل فى فترات منتظمة ، وتدور حول كتل مماثلة من البيادة فى أزياء عسكرية مختلفة : ومع إيقاع وقع الحوافر المنتظم كان الخيالة بزيهم الأنيق الأزرق والأحمر والأخضر المزخرف بالمخرمات ، يركضون مصلصلين صهوات خيول سوداء وكستنائية ورمادية ، وجوقات الموسيقى فى المقدمة ملابسهم حافلة بالوشى . وفيما بين المشاة والخيالة كانت المدفعية فى صف طويل من المدافع اللامعة البراقة ، يزحفون على عرباتهم ببطء ويصدر عنهم صوت ثقيل نحاسى وتفوح منهم روائحهم الخاصة المنبعثة من مضارم النيران ، ويصطفون فى أماكنهم . ولم يكن الجنرالات فقط فى زى العرض الكامل ، لابسين نياشينهم وأوشحتهم ، وقد شدت خصورهم المتشابهة فى الرهافة ، واحمرت رقابهم المحشورة

فى الياقات الصلبة ، ولم يكن الضباط المضمخون وحدهم ، بل كان كل جندى أيضاً نظيفاً حليق الذقن لامع السلاح إلى أقصى درجات اللمعان ، وقد دلكت جلود الخيول حتى لمعت كالساتان، واستقرت كل شعرة من معرفاتها مكانها الصحيح – فالجميع يشعرون أن الأمر لا هزل فيه ، بل إن شيئاً هاماً جليلا على وشك الحدوث . لذا كان كل جنرال وكل جندى شاعراً بقيمته ومغزاه ، وبأنه حبة رمل فى هذا المحيط البشرى ، وشاعراً فى نفس الوقت بمدى قوته ، لأنه جزء من هذا الكل الهائل . فقد بذل جهد عنيف فى الحركة منذ الصباح الباكر ، فما حانت الساعة العاشرة حتى كان كل شىء فى وضعه المطلوب . فصفوف الجند قد انتظمت وقوفاً فى السهل المترامى . والجيش كله ممتد فى ثلاثة صفوف . الخيالة فى المقدمة ، تتلوها المدفعية ، ومن خلفها بمسافة قوات المشاة .

وفيما بين كل صفين من العسكر ما يمكن أن نسميه شارعاً : وكان الجيش مقسماً بدقة إلى ثلاثة أقسام : جيش كوتوزوف أو على الجناح الأيمن منه وقف هوسار بفلوجراد فى الصف الأول ، وهناك أيضاً ألوية خط النار والحرس الذين وصلوا من روسيا ، وهناك ثالثاً القوات النمساوية . ولكن الجميع وقفوا صفاً واحداً ، تحت قيادة واحدة ، وبنظام متماثل .

وكحفيف الريح فوق أوراق الشجر سرت الهمسة فى أرجاء السهل : « ها هم قادمون ! ها هم قادمون ! » . وسمعت أصوات

مذعورة ، وتدقيقات حول اللمسات الأخيرة سرت كالموجة فوق القوات .

وأقبلت جماعة قادمة نحوهم من أولمتز أمامهم . وفى نفس اللحظة – برغم أنه لم تكن هناك ريح – هب نسيم رخاء على الجيش ، فحرك الأشرطة التى تعلو الرماح ، وهز الرايات فى صواريها . فبدا كأن الجيش نفسه يعبر بهذه الحركة عن حبوره باقتراب الإمبراطورين . وسمع صوت واحد صارخ : « ثابت ! » وكما يحدث للساعات الدقاقة ساعة شروق الشمس ، تناقلت الأصوات ذلك النداء فى أرجاء شتى من السهل : « ثابت ! » وغاص الكل فى الصمت !

وفى هذا الصمت الذى يشبه صمت القبور ، كان الصوت الوحيد المسموع هو وقع الحوافر . إنها حاشية الإمبراطورين ! وركب الإمبراطوران صوب الصف ، وبدأت أبواق آلاى الخيالة الأول تعزف مارشاً . وبدا كأن الصوت لا يصدر عن الأبواق ، بل إن الجيش نفسه كان يطلق موسيقاه ابتهاجاً باقتراب الإمبراطورين . ومن خلال الموسيقى سمع صوت الإمبراطور ألكسندر الشاب البشوش يلقى بعض كلمات التحية . وصاح الآلاى الأول « مرحى ! » بصوت يصم الآذان شديد الامتداد والحبور ، حتى أن الرجال أنفسهم استولى عليهم الهول لجسامة صوت كتلتهم المتراصة .

وكان روستوف واقفاً فى الصفوف الأولى من مقدمة جيش كوتوزوف ، التى اقترب منها القيصر أولا ، فملأه شعور – شاركه

فيه كل رجل فى ذلك الجيش – وهو شعار بنسيان نفسه ، وبالفخر بقوتهم وولائهم الملتهب للرجل الذى كان مركز ذلك الحفل الرسمى المهيب .

وأحس أنه بمجرد كلمة واحدة من ذلك الرجل تندفع كل هذه الكتلة الكبيرة (وهو من ضمنها) لتخوض النيران والأمواه ، إلى الجريمة والموت ، أو إلى أعظم البطولات . ولذا لم يستطع مغالبة التحفز والرجفة عند مرأى الرجل الذى تتمثل فيه هذه الكلمة .

وانطلقت الصيحات من كل جانب : « مرحى ! يعيش ! يعيش ! يعيش ! » وحيت الآلايات القيصر ، أحدها بعد الآخر مع نغمات المارش .. ثم صاحوا : « يعيش ! » وأعقب هتافهم المارش ، ثم تعالى الهتاف مرة أخرى وقد تضخم واستفحل حتى صار هديراً يصم الآذان .

وكان كل لواء غارقاً فى سكونه كالجسم الذى لا حياة فيه ، قبل أن يصل إليه القيصر . ولكن ما إن يحاذيه ، حتى يتفجر اللواء بالحياة والأصوات التى تندمج فى هدير الصف كله ، الذى مر به القيصر من قبل . وفى هذا الهدير الذى يصم الآذان ويثير الهول منبعثاً من تلك الأصوات ، وبين الكتل المربعة التى تتألف منها القوات وتقف جامدة فى مواضعها كأنها تحولت إلى حجارة ، كانت تتحرك بلا اكتراث ، ولكن بكل انتظام واتساق بضع مئات من الخيول على صهواتها رجال الحاشية الإمبراطورية ، يتقدمهم شخصان هما

الإمبراطوران . وعليهما سلطت تمام التسليط أعين هذه الكتلة من البشر واهتمامها الحماسى .

وكان الإمبراطور ألسكندر الشاب الوسيم مرتدياً زى فرسان الحرس ، وعليه قبعة مثلثة قاعدتها من الأمام ، يجتذب أكبر نصيب من الاهتمام بوجهه اللطيف وصوته الرنان الخفيض .

وكان روستوف واقفاً بالقرب من حملة الطبول ، واستطاع بعينيه الثاقبتين أن يعرف القيصر من مسافة بعيدة ، وراقبه وهو يدنو . ولما صار القيصر على قيد عشرين خطوة ، ورأى بوضوح كل تفصيلات وجه الإمبراطور الوسيم الشاب السعيد ، أحس بالحنو والنشوة كما لم يشعر بهما من قبل . فكل ما فى القيصر ، وكل قسمة من قسماته ، وكل حركة من حركاته بدت له فياضة بالفتنة .

ووقف القيصر أمام لواء بفلوجراد وقال للإمبراطور النمساوى شيئاً باللغة الفرنسية وابتسم . فلما رأى روستوف هذه الابتسامة بدأ يبتسم أيضاً بلا وعى وشعر بدفقة حب أقوى نحو إمبراطوره . وتاق إلى أن يعرب عن حبه للقيصر على نحو ما ، وكان يعرف أن ذلك مستحيل ، ولكنه أراد أنه يبكى . ونادى القيصر كولونيل اللواء وقال له بضع كلمات .

وقال روستوف فى نفسه :

– رباه ! ماذا عسى أن يحدث لى لو أن الإمبراطور أراد مخاطبتى ! إذن لمت من السعادة !

وخاطب القيصر الضباط أيضاً ، وبدت كل كلمة فى سمع روستوف كالموسيقى :

— أيها السادة جميعاً ! أشكركم من كل قلبى !

وما كان أعظم سعادة روستوف لو أنه مات فى التو واللحظة وفى موقعه هذا فى سبيل إمبراطوره . واستطرد الإمبراطور :

— لقد غنمتم رايات سان جورج وأنتم ستكونون بها جديرين ؛

وقال روستوف فى نفسه :

— لا أتمنى إلا أن أموت فى سبيله !

وقال القيصر شيئاً آخر لم تلتقطه مسامع روستوف والجنود الذين أجهدوا رئاتهم هادرين !

— يعيش ! يعيش !

وصاح روستوف أيضاً منحنياً فوق سرجه ، صارخاً بكل قوته ! شاعراً بأنه مستعد أن يؤذى نفسه بهذا الصياح لو أدى ذلك للتعبير عن حماسته للقيصر .

ووقف القيصر بضع ثوان مواجهاً الهوسار، كالمتردد ، ودهش روستوف :

— كيف يتسنى للإمبراطور أن يتردد ؟

ولكن ذلك التردد لم يلبث أن بدا له جليلا ساحراً ، شأن كل ما يصدر عن القيصر . ولم يطل تردد القيصر إلا لحظة ، لم مس بقدمه

فى حذائه المدبب (طبقاً للطراز الحديث فى تلك الأيام) بطن جواده الإنجليزى الأصيل ، وجمع بيده ذات القفاز الأبيض المعنة وانتقل مبتعداً ، يصحبه ذلك البحر الجياش بلا انتظام من ياورانه . وزاد ابتعاده ليتوقف أمام الآلايات الأخرى ، وأخيراً كانت الريشة البيضاء فى قبعته كل ما يستطيع روستوف أن يراه فوق رءوس الحاشية المحيطة بالإمبراطورين .

ولمح روستوف بين أعضاء هذه الحاشية الأمير بولكونسكى مقتعداً جواده فى وضع متراخ . وتذكر روستوف مشاحنته معه فى اليوم السابق وشكه هل ينبغى أو لا ينبغى أن يتحداه للمبارزة. وقال روستوف لنفسه الآن : « لا ينبغى بالطبع وهل يستحق هذا الأمر التفكير والكلام فيه فى مثل هذه اللحظة الراهنة ؟ وفى مثل هذه اللحظة من الحب والحماسة وإنكار الذات ما قيمة كل مشاحناتنا ؟ إنى أحب كل إنسان وأصفح عن كل إنسان فى هذه اللحظة .

ولما أتم القيصر الدورة حول كل الآليات تقريباً ، بدأت القوات تمر أمامه فى مارش العرض ، وكان روستوف على جواده « البدوى » الذى اشتراه أخيراً من دينزوف هو ضابط المؤخرة ، أى كان عليه أن يكون آخر من يمر بمفرده على مرأى من القيصر مباشرة .

وقبل أن يصل إلى القيصر ، أعمل روستوف (وهو فارس

متمكن) مهمازه مرتين فى بطن البدوى وحمله على ذلك الضرب من الركض الذى يلجأ إليه عندما يستثار ، فلوى الجواد أنفه الذى يكلله الزبد إلى صدره ، وقوس ذيله وبدا أنه سيمرق فى الهواء من غير أن يمس الأرض . وكأنما شعر الجواد بعين القيصر عليه ، فرمح أمامه بأسلوب بارع وهو يتراقص بقوامه فى براعة فائقة .

أما روستوف نفسه فأرجع رجليه إلى الوراء ، وصفط بطنه وشعر أنه وجواده قطعة واحدة ، وعلى هذه الصورة ركب أمام القيصر مقطب الوجه ، ولكنه سعيد بأنه يبدو عفريتاً كما يقول دينزوف .

وقال القيصر :

– برافو آلاى بفلوجراد !.

وقال روستوف فى نفسه :

– رباه ! أفلا يسعدنى لو أمرنى بقذف نفسى فى النار هذه المحظة !

ولما انتهى العرض بدأ ضباط الإمدادات وجيش كوتوزوف يجتمعون فى مجموعات . وتناثرت الأحاديث عن الإنعامات التى منحت ، وعن النمساويين وأرديتهم وعن جبهتهم ، وعن بونابرت وما ينتظره الآن من وقت عصيب ، ولاسيما حين يصل فيلق إيسين ، وتنحاز بروسيا إلى جانبنا . ولكن الموضوع الأساسى للأحاديث فى



ركب أمام القيصر مقطب الوجه ، ولكنه سعيد بأنه يبدو عفريتاً كما يقول دينزوف ..

كل الأوساط كان عن الإمبراطور ألسكندر ، وكل كلمة قالها ، واصفين كل إيماءة مسهبين فى إطرائها بحماسة .

ولم تكن لدى الجميع إلا رغبة واحدة وهى أن يواجهوا العدو تحت قيادة الإمبراطور بأسرع ما يمكن . فتحت قيادة الإمبراطور نفسه لن يصعب عليهم قهر أى عدو مهما كان . هكذا كان تفكير روستوف ومعظم الضباط بعد العرض .

وشعروا جميعاً بعد العرض بأن النصر أوكد الآن مما كان بعد كسب معركتين حاسمتين .

* * *

- ٩ -

وفى اليوم التالى للعرض ارتدى بوريس دروبتسكوى أبهى حلة عسكرية لديه، وركب مصحوباً بأطيب تمنيات زميله بيرج بنجاحه ، إلى أولمتز ليقابل بولكونسكى ، على أمل الاستفادة من تودده بالحصول على منصب أفضل، ويا حبذا لو كان منصب ياور فى حاشية إحدى الشخصيات الهامة ، وذلك منصب يبدو له ذا لمعان خاص .

— فالحال على أحسن ما يكون بالنسبة لروستوف ، الذى يرسل إليه أبوه عشرة آلاف فى المرة الواحدة ، فله الحق فى أن يقول : بأنه لا يعنى نفسه بالتزلف لأى إنسان ، أو الالتحاق بخدمة أى رجل . أما أنا الذى لا أملك إلا ذهنى ، فيجب أن أبنى مستقبلى ، ولا أترك الفرص تفلت من يدى ، بل أفيد منها أكبر فائدة ممكنة .

ولم يجد الأمير أندريه فى أولمتز ذلك اليوم ، ولكن منظر أولمتز — حيث توجد القيادة العامة والسلك السياسى ، وحيث يقيم الإمبراطوران بحاشيتيهما وهيئة بيتيهما وبلاطهما — قوى رغبته فى الانتماء إلى هذا الملأ الأعلى .

ولم يكن يعرف أحداً ، وعلى الرغم من زى الحرس الأنيق الذى يرتديه ، إلا أن كل هؤلاء السادة ذوى المقام بدوا أعلى قدراً منه بما لا يقاس ، وهم يرمحون جيئة وذهاباً تلك الشوارع فى الأنيق من مركباتهم وريش قبعاتهم ، وأوشحتهم ، ونياشينهم ، ما بين رجال بلاط وضباط ، فما هو إلا ضابط صغير فى الحرس ، ولذا فهم ليسوا

غير مستعدين فحسب ، بل غير قادرين على المعرفة بوجوده . وفى مقر القائد العام كوتوزوف حيث سأل عن بولكونسكى نظر إليه كل الياوران ، بل والمراسلات وكأنهم يريدون إشعاره . أن عدداً كبيراً من الضباط من صنفه كانوا يأتون للتلكؤ هنا متحرقين إلى مقابلتهم . وبرغم هذا ، بل بالأحرى بسبب هذا ، توجه فى اليوم التالى وهو الخامس عشر من الشهر ، بعد الغداء ، إلى أولمتز ، وقصد الدار التى يقطنها كوتوزوف وسأل عن بولكونسكى . وكان الأمير أندريه فى البيت ، وأدخلوا بوريس إلى حجرة كبيرة ، لعلها كانت تستخدم فى وقت من الأوقات للرقص ، أما الآن ففيها خمسة أسرة وقطع أثاث متنوعة : منضدة ومقاعد وطراز قديم من البيانو . وكان أحد الياوران جالساً وهو مرتد روبا فارسيا يكتب على منضدة قرب الباب . وياور آخر هو البدين الأحمر الوجه نسفتسكى مضطجع على فراش ، وذراعاه تحت رأسه ، يضحك مع ضابط جالس بجوار الفراش . وهناك ياور ثالث يعزف فالساً من فالسات فيينا على البيانو ، فى حين رقد رابع على البيانو وهو يدندن النغمة : وأما بولكونسكى فلم يكن فى الحجرة ، ولم يغير أحد من هؤلاء السادة وضعه عندما لاحظ دخول بوريس . ولما اتجه بالسؤال إلى الياور الذى كان يكتب التفت إليه فى ضيق وأخبره أن بولكونسكى هو الياور المنوب ، وأن عليه الاتجاه نحو الباب الأيسر ، وهو باب حجرة الاستقبال إن كان

يريد مقابلته . فشكره بوريس وتوجه إلى حجرة الاستقبال ، وهناك وجد قرابة عشرة من الضباط والجنرالات .

وما إن دخل بوريس كان الأمير أندريه يصغى — وهو مرخ جفنيه بازدراء (بذلك التعبير المهذب عن الإعياء الذى يقول بوضوح : « لولا أن هذا واجبى لما بقيت أحادثك لحظة واحدة ») لجنرال روسى مسن يحمل عدداً كبيراً من الأوسمة ، كان واقفاً وقفة منتصبة جداً ، بل يكاد يقف على أخمص قدميه ليضع بعض المواد أمام الأمير بولكونسكى ، وعلى وجهه القرمزى أمارات الخنوع كأنه جندى عادى .

وقال الأمير للجنرال بالروسية التى تشوبها اللكنة الفرنسية ، وهذه طريقته كلما أراد الكلام بازدراء :

— حسن جداً . تكرم بالانتظار لحظة !

ولمح بوريس ، فتحول انتباهه تماماً عن الجنرال (الذى جرى وراءه يلاحقه بالتوسلات أن يسمع شيئاً آخر) ، وأومأ إلى بوريس بابتسامة مشرقة وهو يلتفت إليه . وفى هذه اللحظة رأى بوريس بوضوح ما كانت لديه فكرة خاطفة عنه من قبل ، ألا وهو أنه بالجيش بمعزل تماماً عن نظام تسلسل الرئاسات والانضباط المدون فى كتب التعليمات والمعروف فى اللواء والمعلوم له ، يوجد نوع آخر من التسلسل الرئاسى ، هو الذى يجعل ذلك الجنرال القرمزى الوجه ينتظر باحترام بينما الأمير أندريه — وهو برتبة النقيب — يأخذ

ما يروقه من الوقت للتحدث إلى الملازم دروبتسكوى . وشعر بوريس بالتصميم أكثر من ذى قبل على أن يتبع فى المستقبل ذلك القانون غير المكتوب. لا قانون الجيش المدون فى التعليمات واللوائح . بل إنه شعر الآن أنه لمجرد أنه موصى به لدى الأمير أندريه ، أنه صار أعلى درجة من ذلك الجنرال الذى كان بمقدوره فى ظروف أخرى، فى الجبهة ، أن يقضى تماماً على ملازم مثله فى الحرس . وتوجه إليه الأمير أندريه وصافحه قائلا :

— آسف جداً لأنك لم تجدنى بالأمس ، فقد كنت مشغولا طول اليوم مع الألمان . وذهبنا مع ويروتر لبحث الأوضاع ، فالألمان عندما يلتزمون الدقة ، لا حدود لما يتطلبون !

وابتسم بوريس كأنه فهم على وجه العموم ما يشير إليه الأمير أندريه . ولكنها كانت المرة الأولى التى يسمع فيها اسم ويروتر ، أو حتى كلمة « أوضاع » مستخدمة بهذا المعنى . واستطرد الأمير :

— أأنت يا فتاى العزيز لم تزل راغباً فى منصب ياور ؟ لقد كنت أفكر فى أمرك منذ رأيتك .

فقال بوريس وقد احمر وجهه لسبب ما :

— نعم . لقد كنت أفكر فى سؤال القائد العام، فقد تلقى رسالة عنى من الأمير كوراجين ، فأردت أن أسأله لأننى أخشى أن الحرس لا تجوز لهم الخدمة العاملة .

— عظيم جداً . عظيم جداً ! سنتحدث عن هذا فيما بعد . ولكن

دعنى فقط أنتهى من التبليغ عن موضوع هذا السيد ثم أكون تحت تصرفك .

وبينما كان أندريه قد خرج لتبليغ القائد العام بموضوع الجنرال القرمزى الوجه ، كان هذا الجنرال ، الذى يبدو أنه لا يشارك بوريس آراءه عن المزايا العليا للقانون غير المكتوب فى الجيش ، يحملق فى الملازم الوقح الذى عاقه عن إتمام كلامه ، حتى أن بوريس بدأ يشعر بعدم الارتياح ، فأشاح وانتظر بصبر نافد خروج الأمير أندريه من حجرة القائد العام .

وقال الأمير عندما ذهب إلى الحجرة الكبيرة ذات البيانو :

— إننى يا فتاى العزيز كنت أفكر فيك . ولا جدوى من الذهاب إلى القائد العام ، فسيقول لك كلاماً مهذباً ، وسيدعوك للغداء معه (فقال بوريس فى نفسه سيكون هذا نافعاً فى قانون الجيش غير المكتوب) ولكنه لن يصنع لك أكثر من ذلك ، وإلا صار لدينا فى وقت قريب كتيبة كاملة من الياوران والضباط المعاونين . ولكنى سأقول لك ما سوف نصنعه : لى صديق هو كبير للياوران ورجل ممتاز هو الأمير بلجوردكوف . وثمة شىء قد لا تكون فطنت إليه ، وهو أن كوتوزوف وأركان حربه وسائرنا ليست لنا الآن قيمة كبيرة إطلاقاً . فكل شىء الآن مركز فى الإمبراطور ، لذا سنذهب معاً إلى دلجوروكوف . وعلى أن أذهب إليه ، وقد حدثته عنك من قبل ، وسنرى هل من الممكن أن يجعلك تشغل

منصباً بين معاونيه ، أو فى أى موضع هناك قرب الشمس !

فقد كان الأمير أندريه تواقاً دائماً إلى إرشاد الشباب ومعاونتهم على الظفر بالنجاح الدنيوى . وتحت ستار هذا العون للآخرين – الذى ما كان يمكن أن يقبله لنفسه – صار فى الدائرة التى تمنح النجاح ، وهى الدائرة التى تجتذبه . ولذا تولى بكل طواعية قضية بوريس وذهب معه إلى الأمير دلجوروكوف .

وكان الوقت فى أخريات المساء عندما دخلا القصر فى أولمتز الذى يشغله الإمبراطوران وبطانتاهما . وكان مجلس الحرب منعقداً فى ذلك اليوم ، يحضره كل كبار القادة والإمبراطوران . وفى هذا المجلس تقرر – على خلاف رأى الجنرالين الأكبر سناً وهما : كوتوزوف والأمير شفارتزنبرج – التقدم فوراً والاشتباك فى قتال عام مع بونابرت . وكان مجلس الحرب قد انفض لتوه عندما دخل الأمير أندريه وبصحبته بوريس القصر بحثاً عن الأمير دلجوردبوف وكان كل أفراد القيادة العليا ما زالوا تحت تأثير النصر الذى أحرزه حزب الشباب فى مجلس الحرب . وكانت أصوات من طالبوا بالتريث ونصحوا بانتظار حدوث شىء ما ، ثم التقدم بعد ذلك قد اجترفتها الأصوات المتعجلة ، ودحضت حججهم بأدلة دافعة لصالح مزايا التقدم الفورى ، حتى أن ما نوقش فى المجلس ، والمعركة المقبلة وما يعقبها من نصر مؤكد لم يعد يبدو من أمور المستقبل ، بل كأنه صار فى حكم الماضى . فكل المزايا كانت فى جانبنا ، وقواتنا

الهائلة متفوقة بلا شك على قوات نابليون ، وكلها مركزة فى مكان واحد ، والقوات تستمد كل التشجيع من وجود الإمبراطورين ، ولذا كانت متعطشة إلى القتال . وكان الوضع الإستراتيجى الذى سيعملون على أساسه معروفاً بأدق تفصيلاته للجنرال النمساوى ويروثر ، الذى كان على رأس القوات (وشاء حسن الطالع أن تختار القوات النمساوية لمناوراتها نفس تلك الحقول التى كان عليهم أن يحاربوا الفرنسيين فوقها) . فكل تفصيلات المنطقة المحيطة كانت معروفة وموضحة على الخرائط ، أما بونابرت – الذى يلوح أنه صار أضعف من ذى قبل – فلم يتخذ أى إجراءات . وكان دلجوروكوف الذى كان من أشد المتحمسين لمناصرة الهجوم ، قد عاد لتوه من المجلس مرهقاً ، ولكنه متعطش إلى النصر الذى أحرزه وفخور به . وقدم الأمير أندريه الضابط الذى كان يطلب إليه استخدام نفوذه لأجله ، إلا أن الأمير دلجوروكوف – مع أنه صافح بوريس بحرارة وتهذيب – لم يقل له شيئاً . ولا شك فى أنه عجز عن كبح نفسه عن التصريح بأفكاره التى كانت تملأ جوانحه فى تلك اللحظة ، قال للأمير أندريه بالفرنسية :

– آه يا عزيزى ! يا لها من معركة تلك التى كسبناها ! والله نسأل أن يكلل بمثل هذا النصر المعركة التى ستترتب عليها ! ولكنى يجب أن أعترف يا عزيزى بقصر باعى بالقياس إلى النمساويين ، ولاسيما ويروثر – أى دقة ! أى إحاطة ! وأى معرفة بالمكان وأى

استبصار لكل إمكانياته ولكل ظرف ، ولأصغر التفصيلات ! لا يا عزيزى ! لا يمكن أن يوجد ما هو أفضل من هذه الظروف ، لو أن المرء رتبها سلفاً، إنه الجمع بين الدقة النمساوية والبسالة الروسية. فماذا تتمنى أكثر من هذا ؟

فقال بولكونسكى :

– إذن تم الاستقرار نهائياً على الهجوم ؟

فابتسم دلجوروكوف ابتسامة ذات مغزى وقال :

– ويخيل إلى أن بونابرت فقد رشده . وهناك خطاب وصل منه إلى الإمبراطور اليوم .

– أحقاً ؟ وماذا كتب فيه ؟

– وماذا يمكن أن يكتب ؟ إنه « أى كلام » وكل الغرض منه كسب الوقت . فهو كما قلت لك فى أيدينا . هذا هو الواقع ! ولكن أطرف ما فى الموضوع كله (وانفجر فى الضحك فجأة) أنهم لم يعرفوا كيف يوجهون إليه رسالة الرد ! وما دام ليس قنصلا ، وليس بالطبع إمبراطوراً ، فنى حسبانى أنه يجب أن يخاطب بالجنرال « بونابرت ! » .

فقال بولكونسكى :

– ولكن بين عدم الاعتراف به إمبراطوراً وبين مناداته بالجنرال بونابرت ، هناك فرق !

فقاطعه دلجوروكوف بسرعة ضاحكاً بمرح :

– هذه هى القضية ! أنت تعرف بيليبين ، وهو فتى حاد الذهن ، وقد اقترح تسميته « مغتصب الجنس البشرى وعدوه ! » .

– ولا زيادة ؟

– بل لقد كان بيليبين نفسه هو الذى عثر على الصيغة الملائمة بكل جد ، فهو يجمع بين الجد والهزل ...

– وماذا كانت ؟...

فقال دلجوروكوف فى رضاً :

– « إلى رئيس الحكومة الفرنسية » . فكان هذا هو القول الملائم . أليس كذلك ؟

– على ما يرام ، ولكنه سيستاء لذلك غاية الاستياء .

– غاية الاستياء ! حتى يعرفه ، فقد تغدى معه أكثر من مرة بعد أن صار الآن إمبراطوراً فى باريس وكان يقول لى : إنه لم ير قط دبلوماسياً أبرع وأكيس منه ؛ يجمع بين الحذق الفرنسى وموهبة التمثيل الإيطالية . أسمعت نادرة بونابرت والكونت ماركوف ؟ والكونت ماركوف كان الشخص الوحيد الذى يعرف كيف يعامله ، أتعرف حكاية المنديل ؟ إنها تحفة ؟

وروى دلجوروكوف الثرثار كيف أن بونابرت أراد أن يختبر ماركوف سفيرنا لديه فأسقط منديله أمامه عمداً ووقف ينظر إليه ، ولعله توقع من ماركوف أن يلتقطه له ، وإذا بماركوف يسقط منديله أيضاً بجانبه ، ثم التقط منديله من غير أن يمس منديل بونابرت !

فقال بولكونسكى :

– رائع ! ولكنى جئت إليك يا أمير متوسطاً لمصلحة هذا الصديق الشاب ، وأنت تعرف .

ولكن قبل أن يتم الأمير أندريه عبارته ، دخل ياور الحجرة ليدعو الأمير دلجوروكوف لمقابلة الإمبراطور . فقال دلجوروكوف ناهضاً بسرعة ومصافحاً الأمير أندريه وبوريس :

– ما أخف هذا . وأنت تعرف أنه يسرنى جداً أن أصنع كل ما فى وسعى سواء لأجلك أو لأجل هذا الشاب الظريف .

ومرة أخرى صافح بوريس بمرح صادق ولكن بلا اكتراث :

– ولكن الحال كما تريان ... فى فرصة أخرى ! ...

وتحمس بوريس لفكرة وجوده قريباً من السلطات العليا على نحو ما شعر به فى تلك اللحظة . فهو واع بأنه هنا على اتصال باللوالب التى تحكم كل تلك الحركات الواسعة للجماهير التى كان وهو فى اللواء يشعر أنه جزء متواضع ضئيل منها . وتبعا الأمير دلجوروبوف إلى الدهليز وقابلا هناك رجلا قصيراً فى زىّ مدنى ذا وجه محنك وفك سفلى شديد البروز تبدو على محياه اليقظة والمراوغة فى التعبير (وكان خارجاً من باب حجرة الإمبراطور الذى دخل منه دلجوروكوف). وأومأ هذا الرجل القصير برأسه محيياً دلجوروكوف ، وكأنه صديق حميم ، ورمق بنظرة حادة باردة الأمير أندريه واتجه إليه مباشرة متوقعاً منه فيما يبدو أن ينحنى له أو يتنحى عن الطريق . ولكن الأمير

أندريه لم يفعل شيئاً من هذا . وأطلت من وجهة نظرة ناقة ، فاستدار الرجل القصير ولزم جانب الدهليز . وسأل بوريس الأمير أندريه من هذا ، فأجابه :

– هذا رجل من أبرز الرجال ، ومن أبغضهم إلى نفسى . إنه وزير الشئون الخارجية الأمير آدم تشارتوريزكى .

فقال بوريس وهو يصعد زفرة لم يستطع كتمانها وهما خارجان من القصر :

– وهؤلاء هم الذين يقررون مصائر الأمم !

وفى اليوم التالى بدأت القوات فى الزحف ، وحتى حان وقت معركة استرلتز ، لم ينجح فى مقابلة بولكونسكى أو دلجوروكوف ، وظل لفترة من الزمن فى لواء إسمعيلوف .

* *



- ١٠ -

وفى فجر السادس عشر تحركت فصيلة دينزوف – التى كان يخدم فيها روستوف ، وهى جزء من فيلق الأمير بجرايتون – من الموقع الذى توقفت به لقضاء الليل ، كى تتقدم إلى العمليات كما قيل . وبعد زحف نحو ساعة من الزمن ، وفى مؤخرة الطوابير الأخرى ، وقفت الفصيلة على الطريق العام . ورأى روستوف القوزاق ، والفصيلتين الأولى والثانية من الهوسار ، وكتائب البيادة والمدفعية تتجاوزه وتسير قدماً . ورأى أيضاً الجنرالين بجرايتون ودلجوروكوف راكبين مع ياورانهم . وكان ما أحسه من الذعر ، كذى قبل ، عند توقع المعركة ، وكل صراعه الداخلى الذى تغلب به على ذلك الذعر ، وكل أحلامه بإبراز مواهبه فى هذه الموقعة بأسلوب الهوسار الحقيقى – كل هذا كان هباء ، لأن فصيلته قد حجزت فى المؤخرة لتكون احتياطياً ، وهكذا قضى نيقولاى روستوف يوماً تعساً مملا . وفى نحو الساعة التاسعة صباحاً سمع صوت طلقات أمامه وهتافات ، وشاهد إعادة الجرحى (ولم يكن عددهم كبيراً) وأخيراً رأى فصيلة كاملة من الخيالة الفرنسيين مساقين وسط سرية من القوزاق . بديهى إذن أن العمليات انتهت ، وأنها كانت فى حقيقتها عملية صغيرة إلا أنها ناجحة . وكان الجنود والضباط وهم عائدون يتحدثون عن نصر باهر ، وعن الاستيلاء على بلدة فيشاو ، وأن فصيلة بأكلها من الفرنسيين وقعت فى الأسر . وكان النهار صحواً

مشمساً بعد شدة الصقيع بالليل . وبهاء نهار الخريف ذاك كان متسقاً مع أنباء النصر ، التى لم تكن تعبر عنها روايات من شاركوا فيه فحسب ، بل أيضاً بسمات الحبور على وجوه الجنرالات والجنود ، والضباط والياوران الذين كانوا يمرون على جيادهم ذاهبين أو آيبين بالقرب من روستوف . وهذا ما زاد من غصة روستوف لأنه عانى الأهوال التى يشعر بها قبل المعركة بلا طائل ، وها هو قد قضى عليه أن يمضى هذا اليوم متعطلا متبطلا !

وصاح دينزوف وهو يجلس على قارعة الطريق أمام زجاجة خمر وبعض المأكولات :

– تعال هنا يا روستوف ! هيا بنا نشرب ، وبعداً للهموم !

وتحلق الضباط وهم يأكلون ويتحدثون حول خزانة شراب دينزوف . وقال أحد الضباط مشيراً إلى أسير فرنسى من الدراجون (السوارى) يقوده راجلا قوزاقان :

– ها هم يحضرون أسيراً آخر .

وكان أحد القوزاقين يسحب حصان الفرنسى من عنانه ، وهو حيوان فرنسى طويل جميل . وصاح دينزوف بالقوزاق :

– أتبيعان الحصان ؟

– إن شئت يا صاحب السعادة !

ونهض الضباط ووقفوا حول القوزاقين والأسير . وكان هذا السوارى الفرنسى شاباً ألزاسياً يتكلم الفرنسية بلكنة ألمانية ، وأنفاسه

تتلاحق من الإثارة، ووجهه أحمر، وما إن سمعهم يتكلمون بالفرنسية حتى شرع يكلم الضباط بسرعة متحولا من أحدهم إلى الآخر. فقال: إن وقوعه فى الأسر لم يكن بتقصير منه، بل هى غلطة العريف الذى كان قد أرسله لإحضار أكسية الخيل ... وبعد كل كلمة كان يقول: « ولكن لا تسمحوا لأحد بإيذاء حصانى الصغير » ويربت على حصانه. وكان واضحاً أنه لا يدرك تماماً أين هو. وفى إحدى اللحظات كان يعتذر على وقوعه فى الأسر، وفى اللحظة التالية يتخيل نفسه أمام رؤسائه الضباط الفرنسيين، فيحاول أن يثبت لهم انضباطه العسكرى وحميته فى الخدمة. فجلب هذا الأسير الفرنسى معه إلى حرس مؤخرتنا جو الجيش الفرنسى بكل نضارته وهو جو غريب علينا.

وباع القوزاق الجواد بقطعتين ذهبيتين، واشتراه روستوف لأنه أغنى هؤلاء الضباط بما ورد إليه أخيراً من مال بعثت به أسرته إليه. وقال الألزاسى بطيبة قلب لروستوف الذى تسلم الجواد:

— كن رحيماً مترفقاً بالحصان الصغير!

فابتسم روستوف وطيب خاطر الخيال الأسير وأعطاه نقوداً؛ ولمس القوزاقان ذراع الأسير كى يسير معهما. وفجأة تصايح الهوسار.

— الإمبراطور! الإمبراطور!

فسا الهرج والمرج، ورأى روستوف خلف فصيلته على الطريق عدداً من الخيالة فى قبعاتهم ريشات بيضاء. وفى لحظة واحدة صار كل واحد فى مكانه يترقب.

ولا يذكر روستوف ولا يعى كيف جرى إلى موقعه وامتطى جواده. وعلى الفور فارقه أسفه على عدم الاشتراك فى المعركة، وفارقه شعوره بالملل وسط رجال رآهم كل يوم، بل واختفى على الفور كل تفكير فى الذات، واستغرق بمجموع نفسه فى شعوره بالسعادة لوجوده بالقرب من القيصر. فهذا القرب فى حد ذاته كان خير عوض له عن ضياع اليوم كله؛ لذا كان سعيداً سعادة العاشق عندما تحين لحظة اللقاء الذى طال تشوقه إليه. ولم يجسر على تحويل نظره المثبت إلى الأمام، إلا أنه شعر بغريزته من غير هذا الالتفات أنه يقترب. ولم يحس ذلك من وقع حوافر كوكبة الحاشية فحسب، بل لأن كل شىء صار الآن أشد إشراقاً وحبوراً وأحفل بالمعنى وأدعى للطرب. وزاد اقتراب هذه الشمس — فهكذا بدا القيصر عينى روستوف — وراحت تسكب أشعة من الضوء اللطيف المهيب وها هو الآن يحس نفسه منطوياً داخل هذا الإشراق، وسمع صوته — ذلك الصوت الهفهاف الهادئ الجليل البسيط فى آن واحد — وساد صمت كصمت القبور — كما هو الواجب فى نظر روستوف — وفى هذا السكوت سمع صوت القيصر يتساءل:

— أأنتم هوسار بفلوجراد ؟

وأجابه صوت بشرى بعد ذلك الصوت الملائكى :

— إنه الاحتياطى يا مولاى !

وكان القيصر فى مستوى روستوف ، ووقف هناك . وتجلى وجه ألسكندر أوسم مما كان فى العرض قبل ثلاثة أيام . وفاض من هذا الوجه الحبور والشباب، ويا له من شباب برىء يوحى بصبا فتى فى الرابعة عشرة . ومع هذا فهو وجه إمبراطور جليل . ونظر القيصر نظرة عابرة استعرض بها الفصيلة ، فقابلت عيناه عينى روستوف ، واستقرت عليهما ما لا يزيد على دقيقتين . ولا يدرى روستوف هل رأى القيصر ما يدور بنفسه (أوخيل إليه أنه رأى كل شىء) إلا أنه على كل حال نظر ثانيتين كاملتين بعينيه الزرقاوين فى وجه روستوف ، وفاض منهما وميض أخاذ لطيف . ثم رفع فجأة حاجبيه ، وهمز بقدمه اليسرى جواده بحدة ، وركض به .

إن الإمبراطور الشاب لم يستطع كبح رغبته فى شهود المعركة ، وبرغم اعتراضات رجال بلاطه ، وفى الساعة الثانية عشرة فر من الطابور الثالث الذى كان يتبعه وركض إلى الطليعة . وقبل أن يصل إلى الهوسار قابله عدة ياوران بأنباء نجاح الاشتباك . وكانت العملية لا تعدو أسر فصيلة من الفرنسيين ، فضخموها ليجعلوا منها نصراً باهراً على العدو . وهكذا صدق القيصر كما صدق الجيش كله

— ولاسيما أن الدخان لم يزل معقوداً فوق ميدان المعركة — أن الفرنسيين دحروا وأجبروا على التراجع رغم أنوفهم . وبعد أن ركض القيصر بجواده بضعة أميال تلقت فوقة هوسار بفلوجراد الأوامر بالتقدم . وفى فيشاو نفسها — وهى بلدة ألمانية صغيرة — رأى روستوف القيصر مرة أخرى . وفى ساحة السوق بتلك البلدة جرى تراشق شديد بالنيران قبل وصول القيصر ، وثوى عدد من الجنود والموتى والجرحى الذين لم يتسع الوقت لجمعهم ونقلهم . وكان القيصر وسط حاشيته من الضباط ورجال الحاشية ممتطياً جواداً غير الذى امتطاه فى العرض ، وهو جواد إنجليزى كستنائى أصيل . وانحنى على أحد جانبى الجواد برشاقة ، واضعاً منظار ميدان ذهبى على عينه وراح ينظر متمعناً فى جندى ملقى على وجهه ورأسه العارى ملطخ بالدم . وكان هذا الجندى الجريح منفر المنظر مقززاً ، فصدم روستوف لوجوده قرب الإمبراطور ، ورأى كتفى الإمبراطور المنحنيتين ترتجفان كأنما اخترقتهما قشعريرة باردة ، ولكز بقدمه اليسرى جنب جواده لكزة تشنجية ، ورأى أيضاً كيف أن الجواد المدرب التفت ناظراً حوله ولم يتحرك . وترجل ياور فرفع الجندى من تحت ذراعيه وشرع يضجعه على نقالة وصلت لتوها . وتأوه الجندى . فقال القيصر وقد بدا أشد تألماً من الجندى المحتضر :

— برفق ! بلطف ! ألا يسعك أن تكون أكثر ترفقاً به ؟



وتأوه الجندى . فقال القيصر وقد بدا أشد تألمًا من الجندى المحتضر :

ــ برفق ! بلطف ! ألا يسعك أن تكون أكثر ترفقًا به ؟

ثم مضى بجواده مبتعداً .

ورأى روستوف الدموع فى عينى الإمبراطور ، وسمعه يقول بالفرنسية لتشارتورزسكى وهو منصرف :

ــ ما أبشع الحرب ! ما أبشعها !

وكانت قوات الطليعة مرابطة أمام فيشاو على مرأى من خطوط العدو الذى ظل طول النهار ينسحب أمامنا عند أوهى تراشق بالنيران. وبلغت الطليعة بشكر القيصر ، مع وعود بالمكافآت ، ووزعت على الرجال حصة مضاعفة من الفودكا . واشتعلت نيران المعسكر المؤقت بأبهج مما اشتعلت فى الليلة السابقة ، وأنشد الجنود أغانيهم . وفى تلك الليلة احتفل دينزوف بترقيته رائداً ، وقرب نهاية الحفل الصاخب ، وبعد احتساء كمية كبيرة من الخمر ، اقترح روستوف شرب نخب فى صحة الإمبراطور ، ولكن « ليس فى صحة عاهلنا الإمبراطور كما يقولون فى المآدب الرسمية ، بل فى صحة الإمبراطور الرجل الصالح العظيم ! هيا نشرب فى صحته ، ونخب نصر حاسم على الفرنسيين ! » وقال :

ــ لئن كنا قاتلنا من قبل ولم نفرط فى بوصة واحدة أمام الفرنسيين ، كما حدث فى شنجراين فكيف بالله يكون الحال الآن وهو على رأسنا ؟ سنموت جميعاً ، ونموت سعداء فى سبيله . أليس كذلك يا سادة ؟ لعلى لا أحسن التعبير ، فقد شربت كثيراً . ولكن هذا هو شعورى وشعوركم أيضاً . فى صحة إسكندر الأول ! يعيش ! .

وجلجلت أصوات الضباط المرحين : « يعيش ! » ولم يكن النقيب المسن كيرستن أقل حرارة وإخلاصاً فى هتافه من روستوف، ابن العشرين .

وبعد أن شرب الضباط النخب وحطموا كئوسهم ، ملأ كيرستن كئوساً أخرى ، وخرج فى قميصه وسروال ركوبه إلى نيران معسكر الجنود ، والكأس فى يده ولوح بيده فى الهواء ووقف بمهابة وسوالفه الطويلة البيضاء وصدره الأبيض مكشوف من قميصه المفتوح فى ضوء نيران المعسكر . وزأر بصوته العسكرى القوى :

— يا أولاد ! فى صحة عاهلنا الإمبراطور ! وفى صحة النصر على أعدائنا ! هوراه ! فتجمع الهوسار حوله ورددوا الهتاف عالياً !

وفى وقت متأخر من الليل ، بعد أن تفرقوا جميعاً ، ضرب دينزوف بيده القصيرة على كتف روستوف الأثير لديه ، وقال :

— لم يجد أحداً فى الميدان يعشقه ، فعشق القيصر !

فصاح روستوف :

— دينزوف ! لا تمزح فى هذا الموضوع . إنه شعور سام ...

— أصدقك . أصدقك يا عزيزى ! وأشاركك هذا الشعور وأقره !

— لا . أنت لم تفهم ...!

ونهض روستوف وخرج ليتجول بين نيران المعسكر ، وهو

يحلم بسعادة الموت — لا لإنقاذ حياة الإمبراطور ، فهو لم يجسر على أن يحلم بهذا — بل يحلم ببساطة الموت أمام عينى الإمبراطور . لقد كان حقاً عاشقاً للقيصر ومجد الجيش الروسى والأمل فى النصر القادم . ولم يكن الرجل الوحيد الذى كان هذا شعوره فى تلك الأيام المرموقة التى سبقت معركة استرلتز . بل إن تسعة أعشار الرجال فى الجيش الروسى فى تلك الآونة كانوا عاشقين لقيصرهم ولمجد الجيش الروسى ، وإن كان عشقهم أقل نشوة من العشق الذى يكابده روستوف :

* * *



- ١١ -

وظل القيصر مقيماً بفيشاو فى اليوم التالى : ودعى طبيبه الخاص فيلييه لعيادته عدة مرات . وذاع فى القيادة العليا وبين القوات القريبة أن القيصر متوعك ، فهو لم يأكل شيئاً وكان نومه تلك الليلة سيئاً : وكان سبب هذه الوعكة تلك الصدمة البالغة الشدة لنفسيته الحساسة لمرأى القتلى والجرحى .

وفى فجر اليوم السابع عشر ، اقتيد ضابط فرنسى من مواقعنا الخارجية إلى فيشاو . وكان قد جاء تحت راية الهدنة ليطلب مقابلة الإمبراطور الروسى وكان هذا الضابط هو « سافارى » . وكان الإمبراطور قد غفا لتوه ، ولذا تعين على سافارى أن ينتظر . وفى منتصف النهار أدخلوه على الإمبراطور ، وبعد ساعة ركب عائداً يصحبه الأمير بلجورودوف إلى المواقع الأمامية للجيش الفرنسى . وأشيع أن مهمة سافارى هى اقتراح لقاء بين ألكسندر ونابليون . وقد ابتهج الجيش كله واعتز بأن اللقاء الشخصى قد رفض ، وبدلا من القيصر أوفد الأمير بلجوروكوف القائد المنتصر فى عملية فيشاو مع سافارى ليتولى التفاوض مع نابليون ، إذا اتضح — خلافاً للمتوقع — إن هذه المفاوضات قائمة على أساس حقيقى للسلام . وفى المساء عاد دلجوروكوف ، وذهب مباشرة إلى حجرة القيصر وظل وقتاً طويلا بمفرده معه .

وفى الثامن عشر والتاسع عشر تقدمت القوات مسيرة يومين .

وبعد تراشق وجيز بالنيران تراجعت مواقع العدو الأمامية .. وساد توفز وهرج كبيران فى دوائر الجيش العليا وعم النشاط من منتصف اليوم التاسع عشر حتى صباح اليوم التالى، وهو العشرون من نوفمبر ، الذى خيضت فيه موقعة استرلتز الشهيرة . وحتى منتصف اليوم التاسع عشر كان النشاط والهرج والحديث الحماسى وإرسال الياوران مقصوراً على القيادة العليا للإمبراطورين . وبعد الظهر وصل النشاط إلى القيادة العليا لكوتوزوف وهيئة أركان حرب قادة الطوابير . وبحلول المساء حمل الياوران هذا النشاط إلى انحاء فى الجيش وفى ليل التاسع عشر نهضت كتلة الثمانين ألفاً من المكان الذى كانت ترابط به ، وتقدمت إلى الأمام ولحديثها طنين ، فى كتلة جياشة طولها تسعة فراسخ .

إن هذه الحركة الضخمة التى بدأت صباحاً فى القيادة العليا للإمبراطورين ، وأمدت الجميع بقوة الدفع لكل هذا النشاط فى الأجزاء البعيدة عن القيادة ، كانت أشبه بأول عمل فى الترس الأوسط من ساعة كبيرة من ساعات الأبراج . فببطء بدأ ترس واحد فى الحركة ، فبدأ ترس آخر يدور ، ثم ترس ثالث ، وبمزيد ومزيد من السرعة أخذت الروافع والتروس والبكرات تلف ، وبدأت النواقيس تعزف ، وبدأت الدمى تبرز ، وبدأت العقارب تتحرك آلياً نتيجة لذلك النشاط .

وكما يحدث فى آلة الساعة ، يحدث أيضاً فى آلة الجيش العسكرية ، فتى صدرت قوة الدفع الأولى، أدت إلى نتائجها الأخيرة . أما أجزاء

الآلة التى لم تصلها بعد قوة الدفع فتظل راكدة غير متعاطفة ، فبينما التروس تدور حول محاورها ، والبكرات تدور بحركة سريعة ، وأسنان التروس تتعاشق ، يكون الترس المجاور ثابتاً جامداً فى موضعه كأنه مستعد للوقوف هكذا مائة عام . ولكن قوة الدفع تصل إليه ، فتتحرك الروافع ويدور الترس مشاركاً فى الحركة العامة . أما النتيجة والهدف من هذه الحركة فيجاوزان إدراكه .

وكما أن نتيجة الحركة المركبة لعدد لا يحصى من التروس المختلفة والبكرات فى الساعة الكبيرة لا تتجاوز الحركة البطيئة للعقارب التى تدل على الوقت ، كذلك أيضاً نتيجة كل الحركات المركبة لهؤلاء الـ ١٦٠,٠٠٠ روسى وفرنسى – على تنوع انفعالاتهم وآمالهم وهوانهم ومعاناتهم ، ومن دوافع للزهو أو الخرف والحماسة – كانت خسران معركة استرلتز ، التى سميت معركة الأباطرة الثلاثة ، أى مجرد النقلة البطيئة لعقارب ساعة تاريخ البشرية .

وكان الأمير أندريه منوباً فى ذلك اليوم ، وملازماً للقائد العام ، وفى الساعة السادسة مساء زار كوتوزوف القيادة العامة للإمبراطورين ، وبعد مقابلة قصيرة مع القيصر ، ذهب لزيارة ناظر القصر الكونت تولستوى : واغتنم بولكونسكى فرصة هذه الفترة فمضى إلى دلجوروكوف ليحاول معرفة تفصيلات العملية القادمة . وشعر الأمير أندريه بأن كوتوزوف منزعج ومستاء من شىء ما ، وأنهم مستاءون منه فى القيادة العليا ، وأن جميع الناس فى القيادة العليا للقيصر وكانوا

يستعملون معه لهجة من يعرفون شيئاً ما لا يفطن إليه الآخرون ، ولهذا السبب أراد أندريه أن يتحدث مع دلجوروكوف :

وقال دلجوروكوف الذى كان جالساً يشرب الشاى مع بيليبين :

– مساء الخير يا فتاى العزيز . غداً اليوم العظيم. كيف شيخك ؟ مشمئنط ؟

– لا أخاله مشمئنطاً ، ولكنى أحسبه يريد أن يستمع له !

– ولكنه حظى بالاستماع له فى مجلس الحرب وسوف يستمع له عندما يشرع فى كلام معقول . إما أن يسوف وينتظر مع أن بونابرت لا يخشى الآن قدر ما يخشى الاشتباك العام ، فمسألة ليس فيها نظر !

فقال الأمير أندريه :

– أوه . نعم . لقد قابلته . وما رأيك فى بونابرت ؟ أى انطباع ترك فى نفسك ؟

فقال بلجورودوف الذى كان يعلق أهمية كبرى ولا ريب على ما استنتجه بوجه عام من لقائه بنابليون :

– أجل لقد اجتمعت به ، وأنا مقتنع بأنه يخشى الاشتباك العام أكثر من أى شىء فى الدنيا . ولولا هذه الخشية ما الذى دفعه أن يطلب هذا الاجتماع لفتح باب التفاوض ، بل ما الذى دعاه للتراجع مع أن التراجع مناقض لمنهجه كله فى الحروب ؟ صدقنى إنه خائف. خائف من مواجهة عامة . واحفظ عنى جيداً أن ساعته قد دنت !

– ولكن خبرنى كيف كان شكله ؟ وكيف كان سلوكه ؟

فأجابه بلجوروكوف ملتفتاً إلى بيليبين وهو يبتسم :

– إنه رجل يرتدى معطفاً رمادياً ، شديد التلهف على أن يقال له : « يا صاحب الجلالة » ولكن خاب أمله لأنه لم يحصل منى على أى لقب . وهذا هو الرجل برمته !

ثم أردف :

– برغم احترامى العميق لشيخنا كوتوزوف ، لنكونن مغفلين جداً لو تمهلنا وأتحنا له أن يفلت منا أو يغشنا ، فى حين أنه فى متناول أيدينا بالتأكيد . كلا ! ينبغى ألا ننسى سوفوروف ومبدأه : إياك أن تضع نفسك فى موقف يسمح بالهجوم عليك . بل اهجم أنت ! صدقنى أن طاقة الشباب كثيراً ما تكون المرشد الأمين فى الحرب أكثر من كل خبرة الشيوخ الحذرين .

فقال الأمير أندريه متشوقاً إلى أن يشرح لدلجوروكوف فكرته الخاصة وخطة الهجوم التى كان قد أعدها :

– ولكن فى أى موقع سنهاجمه ؟ لقد كنت اليوم عند المواقع الأمامية ولم أستطع حدس الموضع الذى ركز فيه قواته .

فقال دلجوروكوف ناهضاً بسرعة وباسطاً خريطة على المنضدة :

– آه ! هذه مسألة لا أهمية لها إطلاقاً . فقد حسبنا حساب كل الاحتمالات والطوارئ . فإذا كان متمركزاً فى برين ...

وأدلى دلجوروكوف ببيان موجز وغامض عن خطة ويروثر عن

حركة الجناح وبدأ الأمير أندريه يقيم الاعتراضات ويشرح خطته الخاصة التى لعلها تضاهى فى الجودة خطة ويروثر ، ولكن خطة ويروثر كانت قد أقرت بالفعل . وبمجرد أن شرع الأمير أندريه يتوسع فى سلبيات هذه الخطة ومزايا خطته كف الأمير بلجوروكوف عن الإصغاء ونظر بلا اهتمام لا إلى الخريطة ، بل إلى وجه الأمير أندريه . ثم قال :

– سيعقد مجلس حرب فى مقر كوتوزوف الليلة ، ويمكنك حينئذ أن تشرح هذا كله .

فقال الأمير أندريه مبتعداً عن الخريطة :

– هذا ما سوف أصنعه !

وقال بيليبين الذى لبث طيلة الوقت يصغى لحوارهما بابتسامة مشرقة ، أما الآن فكان واضحاً أنه يريد أن يلقى نكتة :

– وفيما تعنيان نفسيكما أيها السيدان ؟ فسواء تمخض الغد عن نصر أو اندحار ، فمجد الجيش الروسى مضمون ! ففيما عدا كوتوزوف لم يبق روسى واحد على رأس طابور ! فالقادة هم الهرجنرال ومبفن ، والكونت دى لانجيرون ، والأمير لختنشتاين ، والأمير هوهنلوهى وبربشبر بشبريش ، أو أى اسم بولندى آخر !

فقال دلجوروكوف :

– أمسك لسانك أيها المغتاب . فليس ما تقول صحيحاً ، بل

هناك روسيان هما ميلورادوفتش ودوتورروف ، ولولا ضعف أعصاب أراكتشيف لكان ثالثهم .

فقال الأمير أندريه :

— إن ميخايل الأريوتوفتش قد انقاد لم فيما أظن أتمنى لكم حظاً سعيداً .

ثم خرج بعد أن صافح دلجوروكوف وبيليبين .

وعند عودته للمسكن لم يتردد فى سؤال كوتوزوف الذى جلس بقربه صامتاً ما رأيه فى المعركة القادمة . فنظر كوتوزوف بصرامة إلى ياوره وأجابه بعد لحظة صمت :

— أظننا سنخسر المعركة . وهذا ما قلته للكونت تولستوى ، وطلبت منه تبليغ هذه الرسالة للقيصر . وبماذا تظنه أجابنى ؟ قال بالفرنسية : « أنا يا عزيزى الجنرال لا أهتم إلا بالأرز والكستليته ، فاهتم أنت بأمور الحرب » . نعم . كان هذا جوابه لى !

* * *

— ١٢ —

فى العاشرة مساء ركب ويروثر ومعه خططه إلى مقر كوتوزوف حيث سيعقد مجلس الحرب ، واستدعى كل قادة الطوابير إلى مقر القائد العام ، ووصلوا جميعاً فى الساعة المحددة عدا الأمير بجرايتون الذى تخلف عن الحضور :

وكان ويروثر — وهو المسئول مسئولية كاملة عن كل ترتيبات المعركة — بتلهفه وعجلته مبايناً تمام المباينة لكوتوزوف المنحرف المزاج والمائل للنوم ، والذى قام على مضض بدور رئيس مجلس الحرب ومقرره . وبدهى أن ويروثر أحس أنه على رأس الحركة التى بدأت تدب ولم يعد من الممكن وقفها ، فهو أشبه بحصان مشدود إلى عربة يجرى على منحدر تل وهو يجر حمله الثقيل وراءه . وليس بوسعه أن يقول : أهو الذى يجذبه أم حمله الثقيل هو الذى يدفعه ، ولكنه على كل حال منطلق بأقصى سرعته ولا وقت لديه ليتدبر أين عسى أن تنتهى به هذه الحركة السريعة . وكان ويروثر قد ذهب مرتين ذلك المساء للتفتيش بنفسه حتى خطوط العدو ، واجتمع مرتين بالإمبراطورين الروسى والنمساوى ليقدم تقريره ويشرح الأمور ، كما ذهب إلى مكتبه حيث أملى أوضاع القوات الألمانية : وها هو الآن قد جاء وهو مجهد إلى مقر كوتوزوف !

وكان ولا ريب شديد الزهو بنفسه حتى أنه نسى واجب توقير القائد العام ، فصار يقاطعه ويتكلم بسرعة وبلا وضوح ومن غير أن

ينظر إلى من يوجه إليه الخطاب ، ولم يجب عن بعض الأسئلة التى وجهت إليه . وكانت ملابسه مغطاة بنثار من الوحل ، وبدا مجهداً شارد الذهن وواثقاً بنفسه ومتعالياً فى الوقت نفسه .

وكان كوتوزوف مقيماً بقلعة صغيرة لأحد النبلاء قرب استرلتز وفى حجرة الاستقبال ، التى تحولت إلى مكتب القائد العام اجتمع كوتوزوف نفسه وويروثر وأعضاء مجلس الحرب ، يحتسون الشاى فى انتظار حضور الأمير بجرايتون لافتتاح الجلسة ، وسرعان ما حضر ضابط من حاشية بجرايتون ومعه رسالة بأن الأمير لن يمكنه الحضور ودخل الأمير أندريه ليبلغ القائد العام بذلك ، واستخدم الرخصة التى سبق أن منحه إياها كوتوزوف بأن يحضر المجلس ، فبقى فى الحجرة .

وقال ويروثر ناهضاً بسرعة من مكانه ومقرباً من المنضدة التى كانت فوقها خريطة هائلة لنواحى برين ، لم تبسط بعد .

— ما دام الأمير بجرايتون لن يحضر ، ففى وسعنا أن نبدأ .

وكان كوتوزوف مفكوك السترة ، ورقبته السمينة متحررة بارزة فوق الياقة ، وهو جالس فى مقعد منخفض ويداه القصيرتان البدينتان مستقرتان على التوازى فوق ذراعى المقعد ، وهو شبه نائم : ولما سمع صوت ويروثر بذل جهداً وفتح عينه الواحدة ، وقال :

— نعم . إذا سمحت ! فالوقت متأخر :

وأومأ برأسه موافقاً ، ثم تركه يسقط وأغلق عينه مرة أخرى :

ولئن كان أعضاء المجلس قد اعتقدوا فى البداية أن كوتوزوف يتصنع النوم ، فأصواته الأنفية التى أطلق لها العنان أثناء القراءة التى تلت ذلك أثبتت أن القائد العام مشغول بشىء أهم بكثير من الرغبة فى إظهار ازدرائه لتوزيعهم للقوات أو أى شىء آخر ، بل هو مشغول بإشباع ضرورة بشرية لا يمكن مقاومتها ، ألا وهى النوم ! كان نائماً فعلا . ونظر ويروثر إلى كوتوزوف بإيماءة امرئ مشغول جداً لا يمكنه تضييع دقيقة من وقته ، ولما اقتنع أنه نائم تناول ورقة وبنبرة عالية رتيبة بدأ يقرأ توزيع القوات فى المعركة الموشكة الوقوع تحت عنوان قرأه أيضاً وهو : « التوزيع لشن هجوم على العدو خلف كوبلنتز وسوكولنتز ، فى ٢٠ من نوفمبر سنة ١٨٠٥ » . وكان هذا التوزيع شديد التعقيد والتداخل .

— بما أن الجناح الأيسر للعدو يستند إلى التلال ذات الغابات ، وجناحه الأيمن يتقدم بطريق كوبلنتز وسوكولنتز خلف المستنقعات الموجودة هناك ، أما جناحنا الأيسر فيمتد إلى ما وراء ميمنتهم بكثير ، فمن المستحسن لنا أن نهاجم هذا الجناح الأيمن ، ولاسيما أن تحت يدنا قريتى سوكوبلنتز وكوبلنتز اللتين يمكننا بواسطتهما أن ننقض فى آن واحد عليهم فى المؤخرة ونطاردهم فى العراء بين سكلابانتز وثيوريا وبذلك نتجنب ممرات سكلابانتز وبلويتز الضيقة التى تغطيها جبهة العدو ، وتحقيقاً لهذا الهدف النهائى من الضرورى أن

يزحف الطابور الأول ... ويزحف الطابور الثانى ، ويزحف الطابور الثالث .

وبدا على الجنرالات أنهم يصغون على مضض لهذا البيان المعقد عن أوضاع وتوزيع القوات . ووقف الجنرال بوكسهفدن ذو الشعر الأشقر مستنداً بظهره إلى الحائط ، ومسلطاً عينيه على شمعة تحترق ، والظاهر أنه لم يكن مصغياً ، ولا راغباً فى أن يظن به الإصغاء .: وفى مواجهة ويروثر بالضبط جلس ميلورادوفتش مسلطاً عليه عينيه اللامعتين المفتوحتين على سعتهما ، وهو أحمر اللون له سوالف وكتفاه مقوستان إلى أعلى ، وجلسته عسكرية ويداه على ركبتيه وكوعاه مقوستان إلى الخارج . كان جالساً فى صمت عنيد ، محدقاً فى وجه ويروثر ، ولم يحول عينيه عنه إلا عندما توقف رئيس الأركان النمساوى عن الكلام . وعندئذ دار ميلورادوفتش بعينيه بين الجنرالات الآخرين بنظرة ذات مغزى . ولكن كان من المستحيل أن يدرك أحد من هذه النظرة أموافق هو أم غير موافق ، أمسرور هو أم غير مسرور بهذه الترتيبات . وإلى جوار ويروثر جلس الكونت لانجيرون بابتسامة خفيفة لم تكن تفارق أبداً وجهه الفرنسى الجنوبى أثناء هذه القراءة ، وجعل يتأمل أظافر أصابعه وهو يعبث بعلبة سعوط ذهبية عليها صورة . وفى منتصف فقرة من هذه الفقرات الطويلة أوقف دوران علبة السعوط ورفع رأسه وبحركة خفيفة على زاويتى شفتيه النحيلتين قاطع ويروثر وكان على وشك أن يقول

شيئاً ، ولكن الجنرال النمساوى واصل القراءة مقطباً بغضب وبحركة من مرفقيه أوصى بأنه « بوسعه أن يقول رأيه فيما بعد . أما الآن فانظر فى الخريطة و أصغ ! » فرفع لنجيرون عينيه إلى أعلى بنظرة حيرة والتفت إلى ميلورادوفتش كأنه يستوضحه ولكن نظرة ميلورادوفتش لم تكن تعنى شيئاً ، فأرضى عينيه بانقباض ، وعاد إلى العبث بعلبة سعوطه . وغمغم كمن يحدث نفسه ، ولكن بصوت مسموع : « درس فى الجغرافيا » .

وبأدب ووقار وضع برزبيشفسكى يده على أذنه القريبة من ويروثر ، شأن المستغرق فى الانتباه . أما ديهوتوروف وهو رجل قصير فجلس قبالة ويروثر وعلى محياه سيما الدرس والتواضع ، وانحنى على الخريطة وجعل يدرس بعناية ترتيب القوات والأماكن غير المألوفة ، وطلب من ويروثر عدة مرات أن يعين عليه بعض ألفاظ وأسماء القرى الصعبة التى لم يسمعها جيداً ، وكان ويروثر يجيبه إلى طلبه ويدون هذه الكلمات .

ولما انتهت هذه القراءة التى امتدت أكثر من ساعة ، كف لنجيرون عن العبث بعلبة سعوطه وبدأ يتكلم من غير أن ينظر إلى ويروثر أو أى شخص بالتحديد . فبين مدى صعوبة تنفيذ مثل هذا التوزيع ، الذى يفترض أن مواقع العدو معروفة ، مع أن هذا غير مؤكد لأن العدو فى حالة حركة ؛ وكانت اعتراضاته ذات أساس جيد ، ولكن كان واضحاً أن الغرض الأساسى منها أن يجعل ويروثر

– الذى قرأ خططه بكل غرور وكأنه يقرؤها على حفنة من تلاميذ المدارس – يحس أنه لا يتعامل مع بلهاء ، بل مع رجال بوسعهم أن يلقنوه شيئاً فى الشئون العسكرية .

ولما توقف صوت ويروثر الرتيب فتح كوتوزوف عينيه ، شأن الطحان عند حدوث أى انقطاع فى طنين تروس الطاحون ، وأصغى لما قاله لنجيرون ، وكأنما قال لنفسه : « أوه ! أراكم ما زلتم فى هذا الهراء ! » فأسرع بإغماض عينيه ، وترك رأسه يتدلى أكثر من ذى قبل .

وحاول لنجيرون أن يوجه أسوأ الطعنات إلى غرور ويروثر العسكرى . بوصفه صاحب هذه الخطة ، وبين أن نابليون قد يغدو بسهولة هو المهاجم ، بدلا من انتظار الهجوم عليه ، وبذلك يجعل هذه الترتيبات كلها عقيمة . وقابل ويروثر كل الاعتراضات بابتسامة ثقة وزراية . وبدهى أنه أعد نفسه سلفاً لكل اعتراض بصرف النظر عما يمكن أن يقولوه له . فقال :

– لو كان يمكنه الهجوم لقام بهجومه اليوم .

فسأله لنجيرون :

– أتظنه إذن عاجزاً ؟

فأجابه ويروثر بابتسامة المريض الذى تحاول الممرضة أن تملى عليه طريقتها فى العلاج :

– أشك فى أن تحت يده أربعين ألفاً ...

فقال لنجيرون بابتسامة ساخرة وهو ينظر مرة أخرى إلى ميلورادوفتش كأنه يستعينه :

– فى هذه الحالة سيتعرض للدمار بانتظار هجومنا .

ولكن ميلورادوفتش كان بلا شك يفكر فى تلك اللحظة فى أى شىء فى العالم إلا موضوع الخلاف والنقاش بين الجنرالين . فأردف لنجيرون :

– بذمتى ! غداً سنرى هذا كله على ميدان المعركة .

فابتسم ويروثر مرة أخرى ابتسامة تعنى أنه من الغريب والمضحك فى نظره أن يقابل باعتراضات من الجنرالات الروس وأن يتعين عليه تأكيد ما لم يكن هو شخصياً مقتنعاً به ، وإن كان قد أقنع به تماماً صاحبى الجلالة الإمبراطورين . وقال :

– إن الأعداء قد أخمدوا نيرانهم وسمعت ضجة متواصلة فى معسكرهم . فماذا يعنى هذا ؟ إما أنهم ينسحبون – وهذا هو الشىء الوحيد الذى نخشاه – وإما أنهم يغيرون موقعهم (وابتسم بسخرية) ولكن حتى لو اتخذوا مواقعهم عند توراس ، فذلك سوف يخفف عن كاهلنا الكثير من الجهد ، وستظل ترتيباتنا بلا تغير فى أدق تفصيلاتها .

فقال الأمير أندريه ، الذى كان منذ أمد طويل يترقب فرصة للتعبير عن شكوكه :

– كيف يمكن أن يكون هذا ؟..

واستيقظ كوتوزوف ، وتنحنح وأدار نظره بين الجنرالات وقال :

— أيها السادة .. إن التدبيرات ليوم غد ، بل لهذا اليوم (فنحن نقترب من الساعة الواحدة صباحاً) لا يمكن تعديلها الآن . لقد سمعتموها ، وسوف نؤدى واجبنا ، وقبل المعركة ليس هناك ما هو أهم من (وسكت قليلا) من قضاء ليلة راحة طيبة .

وتظاهر بالنهوض من كرسيه ، فانحنى الجنرالات وخرجوا ، وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل . وخرج الأمير أندريه :

* * *

وكان مجلس الحرب الذى لم يفلح الأمير أندريه فى الإعراب له عن رأيه كما كان يأمل ، قد ترك فيه انطباعاً بالقلقلة وعدم الارتياح : وكان هذا صواباً .. ولم يكن يعرف مواطن دلجوروكوف وويروثر ، أو كوتوزوف ولنجيرون والآخرين الذين لم يقروا هذه الخطة : ولكن أكان من المستحيل حقاً على كوتوزوف أن يخبر القيصر مباشرة بوجهة نظره ؟ ألم يكن فى المستطاع خلاف ذلك ؟ وقال لنفسه : « أمن أجل اعتبارات البلاط والأشخاص نجازف بأرواح عشرات الألوف ، وبحياتى أنا أيضاً ؟ أجل ! من الجائز جداً أن أقتل غداً » .

وفجأة ، وقد خطرت له فكرة الموت وثبت إلى مخيلته سلسلة كاملة من أبعد الذكريات وأقربها إلى قلبه على السواء ، وتذكر

وداعه الأخير لأبيه وزوجته ، وتذكر بواكير أيام حبه لها ، وذكر فى اقترابها من الأمومة ، وشعر بالأسف لها ولنفسه ، وخرج وهو فى هذه الحالة من التوتر العصبى ورقة العاطفة من الكوخ الذى كان يقيم به مع نسفتسكى ، وشرع يروح ويغدو أمامه . وكان الليل كثير الضباب ، والقمر يلوح بغموض من وراء الضباب . وراح يقول لنفسه :

— نعم . غداً . غداً ! قد يكون الغد نهاية كل شىء بالنسبة لى ، ولن يكون لهذه الذكريات وجود ، ولن يصبح لها معنى عندى : وغداً ربما ، بل أنا متأكد فعندى هاجس بأنه سيتاح لى غداً أن أبرز كل ما أستطيعه .

وتصور الاشتباك ، وخسران المعركة ، وتركز القتال فى نقطة واحدة وتردد جميع ضباط القيادة ، ثم تأتى اللحظة السعيدة — طولون التى طال انتظاره لها — وتتاح له الفرصة فيتقدم وبوضوح وثقة يعلن رأيه لكوتوزوف وويروثر والإمبراطورين . فتدهشهم جميعاً دقة وصواب رأيه ، ولكن لا أحد يأخذ على عاتقه التنفيذ ، فيتقدم هو ويقود اللواء ، مشترطاً ألا يتدخل أحد فى خططه ، ويقود كتيبته إلى النقطة الحاسمة ويحرز النصر بمفرده .

وناداه صوت آخر : « والموت والاحتضار ! » ولكن الأمير أندريه لم يعر هذا الصوت التفاتاً وواصل انتصاراته . وكان ترتيب المعركة الذى أعقب هذا من صنعه وحده . إنه اسمياً ياور فى أركان

حرب كوتوزوف ، ولكنه يعمل كل شىء وحده ، وهو الذى كسب المعركة وحده ، ونحى كوتوزوف وعين هو مكانه .

وقال الصوت الآخر : « ثم ماذا ؟ ثم ماذا بعد أن تروغ من الجراح عشر مرات ، ومن الموت أو الخيانة قبل ذلك كله ؟ ماذا بعد ؟ » ورد على نفسه قائلا : « لست أدرى ماذا سيحدث بعد هذا كله ، ولا أريد أن أعرف . ولكنى إذا كنت أريد المجد وأن يعرفنى الناس ويحبونى ، فليس ذلك خطأ منى ما دام هذا كل ما أريده وكل ما يعنينى وأعيش له . نعم ! هذا هو هدفى الوحيد ! لن أقول هذا لأحد ، ولكن ماذا أصنع يا ربى إن كنت لا أهتم إلا بالمجد ، وإلا بأن يحبنى الناس ؟ أما الموت والجراح وفقدان الأسرة ، فلا شىء من هذا يروعنى . وبالغاً ما بلغ إعزازى وتقديرى لكثيرين من الناس : أبى وأختى وزوجتى ، وهؤلاء أحب الناس إلى نفسى ، ومهما بدا هذا فظيعاً وغير طبيعى ، إلا أنى مستعد للتضحية بهم جميعاً فى سبيل لحظة مجد ونصر على الرجال ، أو حب أناس لا أعرفهم ، ولن أعرفهم ! وفى سبيل حب أولئك الناس هناك » .

فقد سمع صوت كلام فى فناء بيت كوتوزوف . وترامى إلى سمعه أصوات خدم الضباط وهم يحزمون الأمتعة ، وكان أحدهم ولعله حوذى يغيظ طاهى كوتوزوف الشيخ وهو رجل يدعى « تيت » كان يعرفه الأمير أندريه . وظل الحوذى يناديه ويتندر باسمه قائلا:

— تيت .! هيه يا تيت!

فأجابه تيت :

— ماذا تريد ؟

— تيت يجلد بالسياط .

وسمع صوت الطاهى وقد طغى عليه ضحك الخدم .

— اذهب إلى الشيطان !

وقال أندريه لنفسه :

— ومع هذا فالشىء الوحيد الذى أحبه وأقدره هو الانتصار على جميعهم ! تلك القوة الغامضة وذلك المجد الغامض الذى يبدو مطلا على من هذا الضباب !

* * *

- ١٣ -

فى تلك الليلة بعثوا روستوف مع جماعة من الحراس إلى المواقع الأمامية فى أقصى جزء من فيلق بجرايتون . وكان أفراد جماعته متفرقين أزواجاً حول المواقع الأمامية ، وركب هو شخصياً حول خط المواقع الأمامية محاولا جهده مكافحة النعاس الذى ظل يلاحقه . ومن خلفه كانت تشاهد بقايا جذوات نيران جيشنا ، ومن أمامه الظلام المكلل بالضباب . ورغم إمعانه النظر لاختراق هذه المسافة الضبابية ، إلا أنه لم يتبين شيئاً . وفى لحظة ما لمح شيئاً ضارباً إلى اللون الرمادى ، وفى اللحظة التالية خيل أنه لمح شيئاً ضارباً للسواد ، ثم شيئاً أشبه بوميض نار هناك حيث لابد أن يوجد العدو . ثم خيل إليه أن الوميض صادر من عينيه فحسب وراحت عيناه تواصلان التغميض ، ثم طفت أمام ذهنه صورة الإمبراطور ، ثم دينزوف ، وذكريات موسكو ، وفتح عينيه ثانية فرأى أمامه على مقربة منه جداً رأس حصانه وأذنيه ، وأحياناً أشكالا سوداء للهوسار عندما ركب على مسافة ست خطوات منهم ، أما عن بعد فلا شىء سوى الظلام والضباب : وقال فى نفسه : « غير مستبعد أن يقابلنى الإمبراطور ويكلفنى بمهمة ما ، كأى ضابط ، ويقول لى اذهب واكتشف لنا ماذا هناك » . وثمة أقاصيص كثيرة عن كيف تعرف الإمبراطور على ضباط ومنحهم مكاناً قريباً منه أيضاً . آه لو منحنى مكاناً فى معيته ! كم سأعنى به ، وأقول له الحقيقة كلها ، وأهتك ستار كل

من يخدعونه ! » ولكى يصور حبه وولاءه للقيصر بمزيد من الحيوية تخيل روستوف عدواً أو ألمانياً خائناً لا يكتفى بمجرد قتله ، بل يلطمه على وجهه أمام عينى القيصر .

وفجأة ارتفعت صيحة على مبعدة فنبهت روستوف فأجفل وفتح عينيه وتساءل : « أين أنا ؟ آه . فى خط الحراسة . وكلمة السر هى أولمتز . ما أبغض أن تكون فصيلتنا فى الاحتياط ... ولكنى سأطلب التوجه إلى الجبهة ، فقد تكون هذه فرصتى الوحيدة لرؤية الإمبراطور ، أما الآن فبعد قليل تنتهى نوبتى سأطوف بجوادى دورة أخرى ، وعند عودتى سأذهب إلى الجنرال وأطلب منه ذلك » . وجلس فى سرجه معتدلا وشرع يطوف مرة أخرى حول أفراد جماعته من الهوسار وخيل إليه أن الظلام صار أخف . واستطاع أن يتبين على الجانب الأيسر منحدراً بدا له مضاء ، وهناك هضبة سوداء تواجهه ذات انحدار حاد كأنها جدار . وعلى هذه الهضبة بقعة بيضاء لم يستطع روستوف أن يفهمها . أهى فسحة فى الغابة يضيئها القمر ، أم هى بقايا ثلج ، أم خيول بيضاء ؟ لاح له أن شيئاً ما يتحرك حقاً فوق هذه البقعة البيضاء . فقال لنفسه كالحالم : « لابد أنها ثلج . بقعة من الثلج: ولكنها ليست بقعة ... نا ... تاشا ... أختى ، عيناها سوداوان .:. ناتاشا ... لن تدهش عندما أقول لها : كيف رأيت الإمبراطور ! ناتاشا ... » .

وصاح به صوت هوسار فر به روستوف وهو غاف على جواده :

– الزم يمينك يا صاحب العزة . فها هنا شجيرات .

فرفع روستوف رأسه الذى كان قد سقط على معرفة جواده ، وأوقفه بجوار الهوسار . ولم يستطع أن ينفض عنه النعاس الطفولى ، الذى داهمه . وواصل نجواه الحالمة لنفسه : « ما هذا الذى أفكر فيه؟ يجب ألا أنسى ! كيف سأكلم الإمبراطور ؟ لا . لا . ليس هـذا سيكون ذلك غداً . نعم ! نعم ! ناتاشا تهاجمنا ... من ؟ الهوسار . آه . يا للهوسار بشواربهم على امتداد شارع تفيرسكى ركب ذلك الهوسار ذو الشارب . لقد كنت أفكر فيه . أمام بيت جريبف بالضبط . آه . جريبف ... شاب رائع دبتزوف هذا ! لكن هـذا كله هراء المهم فى الأمر أن الإمبراطور هنا الآن ... يا لله كيف نظر إلى وكأنه يريد أن يقول شيئاً ولكنه لم يجرؤ . بل أنا الذى لم أجرؤ . ولكن هذا كله هراء – والمهم ألا أنسى شيئاً مهما كنت أفكر فيه : أجل . ناتاشا تهاجمنا . نعم نعم . هذا صحيح » . ومرة أخرى سقط رأسه على معرفة جواده . وعلى الفور خيل إليه أن النار تطلق عليه : فقال وقد استيقظ :

– ماذا ؟ ماذا ؟ قطعوهم إرباً ! ماذا ؟

وفى اللحظة التى فتح فيها روستوف عينيه سمع أمامه ، حيث يوجد العدو ، صياح ألوف الأصوات . وأرهف جواده وحصان الهوسار القريب منه آذانهما عند سماع هذه الصيحات . ومن حيث صدر الصياح أوقد ضوء ثم أطفىء . ثم ضوء آخر . وهلم جرا على

امتداد خطوط القوات الفرنسية ، وتوالت الأضواء والصيحات ازدادت علواً على سفح التل . وسمع روستوف صوت كلمات فرنسية وإن لم يستطع تمييزها . وإنما هى قرقرة متصلة ، وقال روستوف للهوسار القريب منه :

– ما هذا ؟ ماذا تظن ؟ إن هذا فى معسكر العدو بالقطع ؟

ولم يتلفظ الهوسار بجواب ، فسأله روستوف بعد قليل :

– ألا تسمع هذه الضجة ؟

فأجابه الهوسار على مضض :

– ومن ذا يستطيع التكهن يا صاحب العزة !

– من اتجاه الأصوات لابد أن يكون مصدرها العدو .

– قد يكون هذا ، وقد لا يكون . الظلام شديد .

وصاح الهوسار بحصانه الذى تململ مهتاجاً :

– اثبت !

وكان جواد روستوف قلقاً أيضاً وراح ينكث بحوافره الأرض المتجمدة وهو ينصت للصياح وينظر إلى الأضواء . وازداد الصياح علواً واندمج فى هدير واحد لا يمكن أن يصدر إلا عن جيش من عدة آلاف وامتدت الأضواء بعيداً ، ولعلها شملت كل خطوط المعسكر الفرنسى .. ولم يعاود النعاس روستوف الآن ، لأن الصيحات الظافرة المرحة الصادرة من جيش العدو أفاقته . وصار الآن يميزها جيداً : « عاش الإمبراطور ! » وقال روستوف للهوسار القريب منه :

– ليس المصدر بعيداً جداً . لابد أنه وراء مجرى الماء .

وتنهد الهوسار ولم يجب ، وتنحنح بغضب . وسمعا وقع حوافر جواد يجرى على طول خط الهوسار ، وفجأة برز من ضباب الليل شكل رقيب من الهوسار فى ضخامة الفيل . وقال الرقيب مقترباً بحصانه من روستوف :

– الجنرالات يا صاحب العزة !

وكان روستوف ما زال ينظر إلى بعيد نحو الأضواء والهتافات ، فركب مع الرقيب لملاقاة عدة رجال تركض جيادهم على طول خط المواجهة . وكان أحدهم على جواد أبيض : إنه الأمير بجرايتون مع الأمير دلجوروكوف وياوره ، وقد خفوا ليروا مظاهرة الأضواء والهتافات الغريبة فى جيش العدو ، وركب روستوف إلى بجرايتون وأبلغه بما سمع ورأى ، ثم انضم إلى الياور فى الإصغاء لما يقول الجنرال . وقال دلجوروكوف لبجرايتون :

– صدقنى . إن هى إلا حيلة ! لقد انسحبوا وأمروا حرس المؤخرة بإشعال نيران وإحداث ضجة لخداعنا .

فقال بجرايتون :

– أشك فى هذا . فمنذ المساء رأيتهم على هذه الهضبة ، ولو كانوا انسحبوا لانسحبوا من هناك أيضاً .

والتفت بجرايتون إلى روستوف وقال :

– يا حضرة الضابط هل حرس العدو ما زالوا هناك ؟

– كانوا هناك هذا المساء ، أما الآن فلا يمكننى القطع يا صاحب السعادة . أأذهب مع بعض الهوسار وأرى ؟

ووقف بجرايتون صامتاً ، وحاول قبل أن يجيب أن يتبين وجه روستوف فى الضباب :

– اذهب وانظر ...

– نعم يا سيدى !

وهمز روستوف جواده ، ونادى الرقيب فدشنكو وهوسارين آخرين وأمرهم بالركوب وراءه ، وركض هابطاً التل فى اتجاه الهتاف الذى استمر مدوياً . وشعر روستوف بالخوف والفرح معاً لركوبه مع ثلاثة من الهوسار وحده فى ذلك البعد الغامض المكلل بالضباب الذى لم يذهب إليه أحد قبله . وصاح به بجرايتون من التل ألا يتجاوز مجرى الماء . ولكن روستوف تصنع عدم السمع وواصل الركوب قدماً بلا توقف وقد اختلطت عليه المعالم ، فظن الشجيرات أشجاراً والأخاديد يدرجالا ، إلا أنه كان يكتشف خطأه باستمرار . وبينما هو يركض هابطاً التل غاب عن نظره رجالنا والعدو على السواء ، ولكنه سمع هتاف الفرنسيين يزداد اتضاحاً . وفى الوادى رأى قبالته شيئاً كالنهر . ولكنه عندما ركب إليه ألفاه طريقاً . ولما صار على الطريق أوقف جواده متردداً بين أن يمضى فيه وبين أن يعبره ويجتاز الساحة السوداء مصعداً فى التل . والمضى على الطريق الذى كان مكشوفاً



وفى الوادى رأى قبالته شيئًا كالنهر . ولكنه عندما ركب إليه ألفاه طريقًا ..

وسط الضباب أمر خطر ، لأن الأشكال يرتسم فوقه بسهولة ، ولذا قال لجنوده :

– اتبعونى ! اعبروا الطريق !

وشرع يركض صاعداً التل نحو النقطة التى كان بها الحارس الفرنسى فى المساء .

وقال أحد الهوسار من خلفه :

– ها هو يا صاحب العزة !

وقبل أن يتسع له الوقت كى يتبين شيئاً برز فجأة بسواده وسط الضباب ، انطلق عيار نارى ، وسطع ضوء ، وأزت الرصاصة فى الهواء فوقه وطارت بعيداً عن السمع ! وأخطأته طلقة أخرى . فلوى روستوف رأس جواده وركض راجعاً . وسمع أربع طلقات أخرى على فترات متفاوتة ، غابت بعيداً فى الضباب . وأجبر جواده على السير ببطء فى طريق العودة ليهدئ من توتر أعصابه . وسمع صوتاً خافتاً مرحاً من داخله : « لابد أن يطلقوا المزيد من النار ! » ولكن ذلك لم يحدث . ولكن عندما اقترب من بجرايتون ركض بجواده مرة أخرى ، ورفع يده إلى قبعته : وكان دلجوروكوف ما زال مصراً على رأيه أن الفرنسيين ينسحبون ، وأنهم ما أظهروا الأضواء إلا لخداعهم ، وأردف :

– وعلام يدل هذا ؟ لعلهم انسحبوا وتركوا حراساً فقط .

فقال بجرايتون :

– واضح أنهم لم ينسحبوا جميعاً ، ولابد أن ننتظر حتى الصباح ، وغداً نعرف كل شيء .

وقال روستوف بصوت عال وهو لا يغالب ابتسامة البهجة بمهمته وأزيز الرصاص :

– الحارس على الهضبة يا صاحب السعادة حيث كان فى المساء :

فقال بجراتيون :

– عظيم جداً . عظيم جداً . أشكرك يا حضرة الضابط .

فقال روستوف :

– أتسمح لى أن أطلب شيئاً يا صاحب السعادة ؟

– وما هو ؟

– صدر الأمر لفصيلتى أن تلزم المؤخرة ، فهل لى أن أطلب إلحاقى بالفصيلة الأولى ؟

– وما اسمك ؟

– الكونت روستوف !

– عظيم جداً . لك أن تبقى فى معيتى !

وقال دلجوروكوف :

– أين إيليا أندريتش ؟

ولكن روستوف لم يجبه وقال :

– إلى أن أعول على هذا يا صاحب السعادة ؟

– سأصدر الأمر .

فقال روستوف فى نفسه :

– وهكذا من المحتمل جداً أن يرسلونى غداً برسالة إلى الإمبراطور: الحمد لله !

وكانت الهتافات والأضواء فى معسكر العدو راجعة إلى أنه بينما الضباط القادة يقرءون على الجنود منشور الإمبراطور إلى القوات، ركب نابليون بنفسه وطاف بالمعسكرات المؤقتة ، فلما رآه الجنود أوقدوا المشاعل من القش وجروا خلفه هاتفين « عاش الإمبراطور». وكان نص منشور الإمبراطور كما يلى :

« أيها الجنود ! ها هو الجيش الروسى قادم لملاقاتكم ، والثأر للجيش النمساوى ، جيش أولم . إنهم القوات التى هزمتموها فى هولابرون ، وقد تعقبوكم حتى هذا المكان . والموقع الذى تحتله الآن قوى ، وبينما يزحفون لتطويق ميمنتى ، سيعرضون جانبهم لى ! أيها الجنود سأقود أنا فيالقكم بنفسى . وسأبقى بعيداً عن مدى النيران إذا أنتم – لشجاعتكم المعهودة – نثرتم الهزيمة والفوضى فى صفوف العدو : أما إذا صار النصر مشكوكاً فيه لحظة واحدة فسترون عندئذ إمبراطوركم معرضاً لأشد هجمات العدو ، فلا يمكن أن يوجد شك فى النصر ولاسيما فى هذا اليوم ، فالقضية قضية شرف المشاة الفرنسيين ،

الذى يقوم عليه شرف أمتنا . لا تخلوا بنظام الصفوف بذريعة نقل الجرحى ! ولتسيطر على كل واحد منكم فكرة أننا لا بد أن نقهر آلات إنجلترا المستمرة الذين تملؤهم كراهية وطننا . إن النصر سيكون ختام حملتنا ، فنعود لنقضى الشتاء حيث تمدنا قوات جديدة تتشكل الآن فى فرنسا ... وعندئذ سيكون الصلح الذى أعقده جديراً بشعبي وبكم ، وبي » .

نابليون

* * *

- ١٤ -

وفى الساعة الخامسة صباحاً كان الجو لا يزال مظلماً . وقوات القلب ، والاحتياط والجناح الأيمن لبجراتيون كانت ما تزال فى الراحة . أما على الجناح الأيسر فطوابير المشاة والخيالة والمدفعية المقدر لها أن تكون أول النازلين من المرتفعات لتهاجم جناح الفرنسيين الأيمن وعلى حسب خطة ويروثر ، تدفعها للتراجع إلى جبال بوهيميا ، فكانت مستيقظة وفى حالة حركة ، ودخان نيران المعسكر التى كانوا يلقون فيها كل ما لا حاجة بهم إليه جعلت عيونهم تلمع . الجو بارد ومظلم والضباط كانوا يشربون الشاى على عجل ويتناولون الإفطار . والجنود يمضغون البسكويت ويدقون الأرض بإيقاع منتظم ويلقون فى النار بقايا أكواخهم والكراسى والمناضد والعجلات وكل النوافل التى لا يمكنهم حملها معهم . والضباط النمساويون يتحركون داخلين خارجين بين القوات الروسية ، ويظهرون فى كل مكان معلنين عن تقدمهم . وبمجرد ظهور ضابط روسى قرب مسكن ضابط قيادى يبدأ اللواء فى الحركة ، فيجرى الجنود مبتعدين عن النار ويلبسون غلايينهم فى تراكهم ، ويضعون الحقائب فى العربات ، ويحملون بنادقهم ويكونون صفوفاً . ويزرر الضباط ستراتهم ، ويحملون سيوفهم وأكياس تبغهم ويروحون ويجيئون بين الصفوف صائحين . ورجال المهمات وخدم الضباط يسرجون خيولهم ، ويكلسون ويربطون العربات والياوران والضباط قادة اللواءات

والكتائب يمتطون جيادهم . ويرسمون على صدورهم الصليب ويصدرون أوامرهم النهائية ، والتحذيرات والتكليفات للرجال الذين يتخلفون مع الحقائب . ويبدأ وقع رتيب لآلاف الأقدام . وتحركت الطوابير غير عالمين أين هم ذاهبون ، وعاجزين بسبب الحشود من حولهم ، وبسبب الدخان والضباب المتكاثف ، عن رؤية المكان الذى يغادرونه ولا المكان الذى يتقدمون نحوه :

إن الجندى الذى يتحرك محاصر ومحاط به ، يجره لواءه ، تماماً كالبحار فى سفينة . وأياً كانت المسافة التى يقطعها كبيرة ، وأيا كانت المناطق التى يخترقها خطيرة ، فكل ما حوله – شأنه شأن البحار الذى لا تتغير حوله الأشرعة – حوله نفس الرفاق دائماً فى كل مكان نفس الرفاق ونفس الرتب ، ونفس الرقيب إيفان متريتش ، ونفس كلب اللواء زوتشكا ، ونفس الضباط . وقلما يعلم البحار ونادراً ما يبالى – فى أى منطقة أبحرت سفينته ، ولكنه فى يوم المعركة – والله وحده يعلم كيف ومتى تحين – تسمع بين القوات نبرة جادة توحى باقتراب شيء جدى ، ويستيقظ بين القوات فضول غير معهود فيهم :. ففى أيام المعارك يبذل الجنود جهوداً شاقة للهرب من الروتين الذى يخيم على حياة اللواء ، فيصغون ويرقبون بانتباه ويسألون بتلهف عما يحدث حولهم .

وغدا الضباب كثيفاً جداً ، حتى أنهم رغم تزايد الضوء لم يستطيعوا الرؤية على مدى عشر خطوات أمامهم ، وبدت الشجيرات

وكأنها أشجار ضخمة ، والأماكن المنبسطة بدت لهم أخاديد ومنحدرات. وكان من الممكن أن يتعثروا فى أى مكان وعلى أى جانب بأعداء غير منظورين يبعدون عنهم عشر خطوات . ولكن الطوابير سارت فترة طويلة فى نفس هذا الضباب ، هابطين التل وصاعدين التل ، مارين ببساتين وأسيجة فى بلاد غريبة مجهولة ، من غير أن يلتقوا بالعدو فى أى مكان . وبالعكس ، أدرك الجنود أن أمامهم وخلفهم وعلى كل جانب كانت هناك طوابير روسية تتحرك فى نفس الاتجاه : وشعر كل جندى بفرح قلبي لأنه عرف أنه أينما كان ذاهباً ، إلى تلك البقعة المجهولة ، يذهب أيضاً كثيرون جداً من رجالنا :

كان يقولون فى صفوف الجند :

– الكورسكيون قد انصرفوا . وهذا هائل يا فتى ! فقد تقابلت قوات رجالنا . وفى الليلة الماضية نظرت إلى النيران المشتعلة ، فلم أجد لها نهاية . كأنها موسكو بالضبط !

ومع أن لا أحد من الضباط القادة لهذه الطوابير ركب إلى صفوف الجند أو تحدث إليهم (فالضباط القادة لهذه الطوابير كما رأيناهم فى مجلس الحرب كانوا منحرفى المزاج ومستائين من الخطط التى تم إقرارها ، ولذا كانوا ينفذون أوامرهم من غير أن يعنوا أنفسهم بتشجيع الجند أو تحريضهم) إلا أن الجنود ساروا بروح معنوية عالية ، كدأبهم دائماً عندما يتقدمون نحو العمليات ، ولاسيما فى حالة القيام بهجوم :

ولكنهم بعد أن ظلوا سائرين نحو ساعة فى الضباب الكثيف ، تحتم أن يقف جانب كبير من القوات ، وسرى فى الصفوف انطباع غير حسن بسوء الإدارة وسوء التفاهم . ومن العسير جداً أن نحدد كيف وصل إليهم هذا الانطباع . ولكن ما من شك أنه وصل إليهم ، وبسرعة خارقة ودقة شديدة ، وانتشر بلا مقاومة كما يتدفق الماء على واد . ولو كان الجيش الروسى يعمل بمفرده ، بدون حلفاء ، لكان من الجائز أن يستغرق هذا الانطباع بسوء التنظيم وقتاً أطول قبل أن يتحول إلى اقتناع عام . أما والحال على ما هو عليه ، فمن السار جداً ومن الطبيعى أن يعزو المرء سوء التنظيم إلى الألمان المخبولين ، واعتقد الجميع أن هناك ارتباكاً خطيراً راجع إلى أغلاط صناع السجق !

— فيم وقوفهم ؟ هل الطريق مسدود ؟ أم التقوا بالفرنسيين أخيراً ؟

— كلا ! لم أسمع بهذا وإلا لكان هناك إطلاق نار : وبعد أن استعجلونا للسير ، وها نحن سرنا ، أوقفونا فى وسط الميدان بلا معنى : الألمان الملاعين ارتكبوا غلطة فاحشة . هؤلاء الشياطين المجانين ! لو بيدى الأمر لأرسلتهم إلى الجبهة . ولكن لا خوف ، فقد انكمشوا فى المؤخرة . وعلينا الآن أن نقف وليس معنا ما نأكله !

— ترى ، هل سيسرعون ؟

وقال أحد الضباط :

— الخيالة يسدون الطريق هناك .

وقال آخر :

— آه من هؤلاء الألمان ! إنهم لا يعرفون بلدهم .

وصاح ياور مقبلا على جواده .

— من أى فرقة أنتم ؟

— الثامنة عشرة .

— إذن لماذا أنتم هنا ؟ كان ينبغى أن تكونوا فى المقدمة منذ مدة طويلة . ولكنكم لن تصلوا إلى هناك قبل المساء .

وقال الضابط وهو منطلق بسرعة :

— إنها تنظيمات المغفلين البلهاء ! فهم لا يعرفون ماذا يصنعون .

ثم أقبل جنرال على جواده وصاح بغضب بلغة أجنبية . فقال جندى وهو يقلده :

— رطانة لا تفهم منها شيئاً ! أتمنى لو رميتهم جميعاً بالرصاص هؤلاء الأوغاد !

— الأوامر الصادرة إلينا أن نكون فى الموقع قبل العاشرة صباحاً . ونحن نقطع نصف الطريق بعد . ما أحسنه من أسلوب لتدبير الأمور وتسييرها !

وترددت العبارة الأخيرة فى جميع الجوانب ، وتحولت الهمة التى بدأ بها الزحف تتحول إلى حيرة وغضب ضد هذه الترتيبات المرتبكة وضد الألمان .

والأصل فى هذا الارتباك أن الخيالة النمساوية كانت تتحرك متجهة إلى الجناح الأيسر ، وإذا بالمراجع العليا تكتشف أن قلب الجيش أبعد مما ينبغى عن الجناح الأيمن ، فتلقت الخيالة بأسرها أمراً بالعبور إلى اليمين . فكان لا بد لعدة ألوف من القوات الراكبة أن تعبر أمام المشاة ، وتعين على المشاة أن تنتظر حتى يتم عبور الخيالة .

وعلى مسافة من مقدمة القوات نشبت مشادة بين الضابط النمساوى والجنرال روسى . فقد صاح الجنرال الروسى طالباً أن تتوقف الخيالة . وحاول النمساوى أن يشرح له أنه ليس مسئولا ، بل المسئول المصادر العليا . وفى هذه الأثناء وقفت القوات وزاد قلقها وثبوط روحها المعنوية . وبعد ساعة من التأخير تحركت القوات أخيراً إلى الأمام وبدأت تنزل التل . وكان الضباب الذى غمر التل اشتدت كثافته على الأرض المنخفضة التى تهبط إليها القوات . ومن أمام الضباب سمعوا طلقاً نارياً ، ثم طلقاً آخر ، بغير نسق فى البداية وعلى فترات غير منتظمة ، ثم زاد انتظام الطلقات وكثرت ، وبدأت مناوشة مجرى الماء الصغير .

ولما كانت القوات لم تتنبه للقاء العدو عند مجرى الماء ، لأنهم اصطدموا بهم غير توقع فى الضباب ، ولم يسمع الجنود كلمة تشجيع من قادتهم ، مع شعور عام بأنهم تأخروا أكثر مما ينبغى ، ولم يروا شيئاً أمامهم أو حولهم فى الضباب ، لذا أطلقوا النار ببطء وفتور صوب العدو ، ولم يصدر لهم أى أمر فى الوقت المناسب من الضباط

ومساعدى القادة ، الذين كانوا يخبطون خبط عشواء فى الضباب فى بلد مجهول لهم ، عاجزين عن العثور على فرقهم . وهكذا بدأت المعركة بالنسبة للطابور الأول والثانى والثالث الذين كانوا قد نزلوا إلى الأرض المنخفضة . أما الطابور الرابع الذى معه كوتوزوف فكان لا يزال فوق هضبة براتزن .

وكان الضباب الكثيف لم يزل مخيماً فوق الأرض المنخفضة حيث بدأت العمليات . أما فوق هذا المستوى فقد بدأ الضباب ينقشع ، ولكن لم تزل الرؤية متعذرة لما كان يجرى فى الجبهة الأمامية : ولم يستطع أحد أن يعرف حتى الساعة التاسعة هل كل قوات العدو – كما ظننا – على بعد عشرة فراسخ منا ، أم كانت قريبة فى ذلك الحيز من الضباب .

وحلت الساعة التاسعة ، والضباب يمتد فى بحر متصل فوق السهل ، ولكن عند قرية شلابانتز على الأرض المرتفعة حيث كان نابليون ، يحيط به ماريشالاته ، كان الوضوح التام سائداً ، ومن فوق رأسه السماء صافية زرقاء . وقرص الشمس الكبير طاف كأنه وهدة كبيرة قرمزية مرتجفاً فوق سطح بحر الضباب الذى يضاهى لون اللبن . ولم تكن القوات الفرنسية فقط ، بل نابليون نفسه ومعه أركان حربه على الجانب الأقصى من جداول الماء ، وقريتى سوكولنتز وشلابانتز ، حيث كنا نعتزم أن نتخذ مواقعنا ونبدأ الهجوم ، بل كانوا على الجانب الأدنى ، على قرب شديد من قواتنا ، بحيث كان

فى وسع نابليون أن يميز جندى الخيالة من جندى المشاة فى جيشنا بعينه المجردة . وكان نابليون يتقدم قليلا ماريشالاته على جواد عربى رمادى صغير مرتدياً نفس معطفه الأزرق الذى كان يرتديه من قبل فى الحملة على إيطاليا . وكان ينظر بإمعان وفى صمت إلى التلال ، البارزة فوق بحر الضباب، والقوات الروسية تتحرك عبرها عن بعد، ويصغى لصوت الطلقات فى الوادى . ووجهه — وكان لم يزل نحيلا فى تلك الأيام — لا تتحرك فيه عضلة وعيناه اللامعتان مثبتتان على بقعة واحدة بإمعان :: وتوقعاته يتضح صوابها ، فجانب من القوات الروسية كان يهبط إلى الوادى صوب البرك والبحيرات ، فى حين يخلى جانب منها مرتفعات براتزن التى كان يعتبرها مفتاح الموقع ، واعتزم الاستيلاء عليها . ورأى خلال الضباب فى الوهدة بين التلين قرب قرية براتزن الطوابير الروسية بحرابها اللامعة تتحرك دائماً فى اتجاه واحد صوب الأودية ، ويختفى الطابور منها بعد الطابور فى الضباب . ومن معلومات حصل عليها فى الليل من أصوات العجلات ووقع الأقدام التى سمعها ليلا عند المواقع الأمامية ، ومن النظام المنحل لزحف الطوابير الروسية ، ومن كل القرائن أدرك بوضوح أن الحلفاء يظنونه يبعد عنهم كثيراً إلى الأمام، وأن الطوابير المتحركة قرب براتزن هى قلب الجيش الروسى ، وأن القلب صار فى هذا الوقت أضعف من القدرة على الهجوم عليه بنجاح . ولكنه مع هذا أرجأ بداية المعركة .

كان ذلك اليوم يوم نصر له ، فهو يوافق يوم تتويجه . وقد نام ساعات قلائل فى الصباح الباكر ويشعر بالنشاط والصحة واعتدال المزاج فبدا له أن كل شىء ممكن ومكتوب له النجاح ، فامتطى جواده وانطلق به ووقف لا يتحرك ، ينظر إلى المرتفعات التى تبرز من الضباب ، واكتسى وجهه البارد بتلك الثقة والرضا عن الذات التى تبدو على محيا صبى سعيد فى الحب . ووقف الماريشالات فوق جيادهم خلفه ولم يجازفوا بتشتيت انتباهه . وراح ينظر إلى مرتفعات براتزن ، ثم إلى الشمس وهى تطفو مشرقة من الضباب .

ولما تخلصت الشمس نهائياً من الضباب وسطعت متألقة فوق الحقول والضباب (وكأنه كان ينتظر هذا كى يبدأ المعركة) خلع قفازه من يده البيضاء الجميلة ، ولوح به لماريشالاته ، وأصدر الأوامر لبدء المعركة . وركض الماريشالات وياوراناتهم فى اتجاهات متباينة ، وفى بضع دقائق كانت القوات الرئيسية للجيش الفرنسى تتحرك صوب مرتفعات براتزن ، التى ازداد انكشاف القوات الروسية عنها ، وهى تتحرك باستمرار إلى اليسار صوب الوادى .

* * *

- ١٥ -

فى الساعة الثامنة ركب كوتوزوف إلى براتزن على رأس الطابور الرابع الذى يقوده ميلورادوفتش، وهو الطابور الذى كلف باحتلال المكان الذى أخلاه طابور النجيرون وبرزبيشفسكى ، اللذين كانا فى ذلك الوقت قد هبطا إلى السهل ، وحيا رجال اللواء الأمامى وأمرهم بالسير ، مظهراً بذلك أنه يعتزم قيادة ذلك الطابور بنفسه . ولما وصل إلى قرية براتزن توقف . وكان الأمير أندريه خلفه بين العدد الكبير من الأشخاص الذين تتكون منهم حاشية القائد العام . وهو فى حالة من التوفز العصبى والتوتر ، ولكنه فى الوقت نفسه يكبح نفسه ويظهر الهدوء ، شأن الإنسان فى أحيان كثيرة عندما يكون على وشك الظفر بلحظة طالت رغبته فيها . فقد كان راسخ الاقتناع بأن اليوم حرى أن يكون بالنسبة له يوم طولون أو جسر أركولا . أجل إنه لا يدرى كيف سيمر هذا اليوم ، ولكنه شديد الاقتناع بأنه هكذا سيكون : وبدا للأمير أندريه أن المعركة ستنشب هناك، فهناك ستبرز المعضلة، وإلى هناك سيرسلوننى على رأس لواء أو فرقة ، وهناك ، والراية فى يدى ، سأسير قدماً وأشتت الجميع أمامى ...

ولم يستطع الأمير أندريه أن ينظر ثابت النفس إلى الرايات التى تتقدم الكتائب المارة أمامه . وظل يقول لنفسه وهو ينظر إلى الراية لعلها هذه الراية نفسها التى بها سأقود الرجال . وقرب الصباح لم يبق شىء من الضباب فوق المرتفعات سوى صقيع دقيق يتحول إلى ندى،

أما فى الوديان فالضباب ما زال بحراً بلون اللبن : ولا يمكن رؤية شىء فى الوادى إلى اليسار حيث اختفت قواتنا ، ومن هناك تترامى أصوات الطلقات . وفوق المرتفعات سماء صافية عميقة الزرقة ، ومن الجهة اليمنى قرص الشمس الكبير . ومن الأمام عن بعد ، فوق ساحل ذلك البحر من الضباب تبرز التلال المشجرة ، التى كان ينبغى أن يكون عليها جيش الأعداء ، وأمكن تبين شىء ما هناك . وعن يمين سمعت سنابك الخيل وقعقعة العجلات ، وبين حين وآخر لمعان الحراب ، دلالة على أن الحرس يغوصون فى منطقة الضباب . وعن يسار خلف القرية كتل مماثلة من الخيالة ، تتحرك وتختفى فى بحر الضباب . ومن أمام ومن الخلف المشاة الزاحفون . وكان القائد العام واقفاً على حافة القرية والقوات تمر أمامه . وبدا كوتوزوف مجهداً وضيق الصدر ذلك الصباح . وتوقف المشاة بجواره بدون أمر ، والظاهر أن شيئاً ما أمامهم كان يسد عليهم الطريق .

فقال كوتوزوف بصوت غاضب لجنرال أقبل عليه راكباً :

— قل للرجال أن يتشكلوا فى طوابير كتائب ويلتفوا حول القرية . كيف أمكنك ألا تفهم يا سيدى العزيز أنه من غير المعقول أن تدعهم يسيروا صفاً طويلا فى مضيق شارع القرية بينما نحن نتقدم لمقابلة العدو .

فقال الجنرال :

— كنت قد اقترحت يا صاحب الفخامة التشكيل فيما وراء القرية.

فضحك كوتوزوف بمرارة وقال :

– وستكونون فى موقع بديع وأنتم تفتحون صفوفكم فى المقدمة على مرأى من العدو .. شيء بديع جداً .

– إن العدو لم يزل بعيداً جداً يا صاحب الفخامة ، على حسب التوزيع المقرر .

فصاح كوتوزوف بغضب ومرارة :

– التوزيع ! ولكن من قال لك هذا ؟.:: من فضلك نفذ ما أمرتك به .

– نعم يا سيدى .

وهمس نسفتسكى للأمير أندريه :

– يا فتاى العزيز ! الشيخ فى حالة مزاجية فظيعة .

وركض صوب كوتوزوف ضابط نمساوى بكسوة بيضاء وفى قبعته ريش أخضر وسأله باسم الإمبراطور : هل بدأ الطابور الرابع فى السير ؟ فاستدار كوتوزوف من غير أن يجيب ووقعت عينه بالصدفة على الأمير أندريه الذى كان واقفاً بقربه . ولما رأى بولكونسكى لانت ملامحه الشاقة، وكأنه تذكر أن ياوره لا لوم عليه فيما يجرى . ومن غير أن يرد على الياور النمساوى قال لبولكونسكى :

– اذهب يا عزيزى وانظر هل الفرقة الثالثة تجاوزت القرية ، وقل لهم أن يتوقفوا وينتظروا أوامرى .

وما كان الأمير أندريه ينطلق حتى استوقفه وأردف :

– واسأل هل ربض الرماة القناصة فى مواقعهم ، وماذا يصنعون ؟ ماذا بالله يصنعون ؟

وأعاد الغمغمة لنفسه من غير أن يرد على النمساوى . وركض الأمير أندريه لينفذ الأمر ، ولحق بكل الكتائب المتقدمة ، ثم أوقف الفرقة الثالثة وتأكدمن عدم وجود صف من القناصة يسبق طوابيرنا . وبهت قائد اللواء المتقدم جداً عندما وصل إليه الأمر من القائد العام أن يرسل صفاً سريعاً جداً من القناصة فى المقدمة . فقد كان هذا القائد مستريحاً إلى الاعتقاد بوجود قوات أخرى أمامه ، وإلى أن العدو لا يمكن أن يكون على بعد أقل من عشرة فراسخ : وفى الحقيقة لم يكن يتقدمه إلا رقعة خالية من الأرض منحدرة يغطيها الضباب . وما إن بلغه الأمير أندريه أمر القائد العام بتصحيح هذا الإغفال حتى ركض عائداً . وكان كوتوزوف فى نفس الموقع ، وهيكله الضخم متهدل على السرج بكلال التقدم فى السن ، وهو يتثاءب بإعياء مقفل العينين : والقوات لم تتحرك بعد ، ولكنها تقف وقفة انتباه .

وقال للأمير أندريه :

– طيب . طيب .

ثم التفت إلى الجنرال الذى كان يحمل ساعته فى يده ويقول :

إن الوقت حان للانطلاق ، لأن كل طوابير الجناح الأيسر قد هبطت التل بالفعل . ولكن كوتوزوف قال من بين تثاؤباته :

– لدينا متسع من الوقت ياصاحب السعادة . متسع من الوقت !

وفى تلك اللحظة كانت هناك عن بعد وراء كوتوزوف أصوات ألوية تؤدى التحية ، وتقاربت الهتافات على امتداد صف الطـوابير الروسية المتقدمة نحوه . وواضح أن من كان موضوع هذه التحيـة كان راكباً بسرعة . ولما بدأ جنود اللواء الذى يقف أمامـه كوتوزوف فى الهتاف ، انحرف بجواده شيئاً ما إلى أحد الجانبين ، وغضن وجهه ونظر حوله : وعلى امتداد الطريق من براتزن كانت تركض كوكبة كاملة من الخيالة مختلف ألوانها ، وفيها اثنان يركبان جنباً إلى جنب فى مقدمة الباقين ، يرتدى أحدهما زياً عسكرياً أسود وريشة بيضاء ، ممتطياً جواداً إنجليزياً أصيلا كستنائى اللون ، ويرتدى الآخر زياً عسكرياً أبيض ، ويمتطى جـواداً أسـود . وهـذان هما الإمبراطورين مع حاشيتيهما . وبشىء من التكلف على طريقة الجندى القـديم على رأس لوائه ، أصـدر كوتوزوف الأمر : « ثابت » للقوات الواقفة وركب إلى الإمبراطورين وهو رافع يده بالتحيـة ، وقد تغيرت قامته وأسلوبه كله فجأة ، فاتخذ هيئة التابع الذى يتقبل كل شىء بدون نقد . وفى احترام متصنع لا شك أنه ترك انطباعاً غير حسن لدى ألكسندر ، ركب إليه وحياه .

وعبرت الانطباعات غير السارة وجه الإمبراطور الشاب السعيد

مثلما تعبر آثار الضباب صفحة السماء الصافية ، واختفت . وقد بدا ذلك اليوم بعد مرضه أنحف قواماً مما كان يوم العرض فى ألموتز ، حيث رآه بولكونسكى لأول مرة بالخارج . ولكنه كان يتمتع بذلك المزيج الفـاتن من الجلالة والدماثة فى عينيه الرماديتين البـديعتين ، وعلى شفتيه الرقيقتين تعبير سائد عن الشباب الساذج النبيل القلب .

وفى يوم العرض فى ألموتز كان أكثر جـلالا ، أما هنـا فكان أكثر حيوية ونشاطاً ، وقد احمر وجهه قليلا من الركض السريع هذه الفراسخ الثلاثة . وعندما أوقف جواده صعد زفرة ارتياح ، ونظر حوله إلى من كانوا فى حاشيته فى مثل شبابه وتلهفه . وكان وراء القيصر تشارتورسكى ونوفوسلتوف والأمير بولكونسكى وستروجانوف والباقون جميعاً ، وكلهم شبان مرحون فى أزياء فاخرة على جيـاد فخمة مطمرة ، وقد ازدادت حرارتهم بعض الشىء من الركض : والإمبراطور فرانسيس شاب مورد الوجه طويله ، منتصب القـامة جداً فوق جواده الأسود الجميل ، يرمق من حوله بنظرات متمهلة قلقة . وأشار إلى أحد ياورانه البيض ووجه إليه سؤالا :

« فى أى ساعة بدءوا على الأرجح » ؟

وفكر الأمـير أندريه فى نفسه ، وهو يرمق صـاحبه القـديم بابتسامة لم يستطع كبحها ، وهو يتذكر مقابلته معه . ومع حاشـية الإمبراطورين كان هنـاك عدد من الأرستقراطيين الشبان — من الروس والنمساويين — مختارين من ألوية الحرس والقتال ، ووسطهم

يوجد سياس يقودون جياداً إضافية ، وهى دواب جميلة من إسطبلات القيصر ، مغطاة بأغطية مطرزة .

وما أشبه ما جاءت به هذه الكوكبة من الشباب اللامع إلى هيئة أركان حرب كوتوزوف بنسمة هواء طلق من الريف الناضر دخلت إلى حجرة راكدة الهواء من نافذة مفتوحة .

وقال الإمبراطور ألكسندر بسرعة مخاطباً كوتوزوف بينما هو ينظر بلطف وتهذيب صوب الإمبراطور فرانسيس :

— لماذا لم تبدأ يا ميهايل لاريونوفتش ؟

فأجاب كوتوزوف وهو ينحنى بإجلال :

— إنى أنتظر حتى أرى .

وحول الإمبراطور أذنه إليه فى تجهم خفيف وكأنه لم يسمع ما قاله : وكرر كوتوزوف كلماته . (ولاحظ الأمير أندريه أن كوتوزوف ارتجفت شفته العليا بصورة غير طبيعية وهو يقول : إنى أنتظر) :

— إنى أنتظر حتى أرى يا صاحب الجلالة . فليست كل الطوابير قد تكتلت بعد يا صاحب الجلالة .

وسمعه الإمبراطور هذه المرة ، ولكن يبدو أن الإجابة لم ترقه ، فهز كتفيه المائلتين ، ونظر إلى نوفوسلتوف الذى كان بقربه نظرة شكوى من كوتوزوف . وقال القيصر وهو ينظر مرة أخرى إلى

الإمبراطور فرنسيس وكأنه يدعوه ، إن لم يكن للتدخل ، فعلى الأقل للإصغاء لما يقول . ولكن الإمبراطور فرنسيس ظل ينظر إلى بعيد غير مصغ :

— إننا لسنا فى ميدان العرض القيصرى يا ميهايل لاريونوفتش ، حيث لا يبدأ العرض إلا إذا كانت كل الألوية مستعدة .

فأجابه كوتوزوف بصوت رنان ، وكأنه يتوقع تجاهل كلماته ، ومرة أخرى سرت رجفة فى وجهه وضغط على ألفاظه وباعد بينها :

— ولهذا السبب بالضبط أنا لم أبدأ يا مولاى . لأننا لسنا فى ساحة عرض القيصرية .

وفى الحال تبادل أفراد حاشية القيصر النظرات ، وعبر كل وجه من وجوههم عن الأسف واللوم ، وكأنهم يقولون :

— مهما كبرت سنه ، ما كان ينبغى أن يتكلم هكذا :

ونظر القيصر بإمعان فى وجه كوتوزوف ، منتظراً منه المزيد ، ولكن كوتوزوف أحنى رأسه باحترام وبدا عليه أنه ينتظر أيضاً . : وطال الصمت نحو دقيقة ، ثم قال كوتوزوف رافعاً رأسه ومرتداً إلى لهجته المتكلفة ، لهجة الجنرال الغبى الذى لا ينتقد ، بل يطيع الأوامر :

— ومع هذا ، إن كانت هذه أوامر جلالتكم :

وابتعد وأومأ إلى قائد الطابور ميلورادوفتش وأمره بالتقدم :

وبدأت الطوابير تتحرك من جديد ، ومرت أمام القيصر كتيبتان من لواء نوفجورود وكتيبة من لواء أبشيرون .

وبينما كانت كتيبة أبشيرون تمر ، ركض ميلورادوفتش (وهو رجل أحمر الوجه يرتدى الكسوة الرسمية والنياشين وبلا معطف ، وقبعته مرفوعة الحوافى وفى أحد جانبيها ريشات ضخمة) متقدماً الكتيبة وحيا برشاقة ، وأوقف فرسه أمام القيصر ، فقال القيصر :

— فى رعاية الله يا جنرال !

فأجابه بفرنسية رديئة النبرة :

— وايم الله يا مولاى ، لنبذلن أقصى ما فى وسعنا !

فسرت بين الحاشية ابتسامة سخرية من لكنته الفرنسية الرديئة ، وأدار ميلورادوفتش جواده بحدة ووقف وراء القيصر ببضع خطوات . وأثار وجود القيصر حمية الكتيبة فخطت بنشاط وهمة أمام الإمبراطورين وحاشيتيهما . وصاح ميلورادوفتش بصوته المرح العالى الواثق بنفسه ، وقد استثاره فيما يبدو صوت الطلقات وتوقعات المعركة ومنظر جنود لواء أبشيرون رفاقه القدامى مع سيفوروف ، حتى أنه نسى وجود القيصر :

— أيها الفتيان ! ليست هذه أول قرية عليكم الاستيلاء عليها !

وهدر الجنود :

— يسعدنا أن نبذل قصارى جهدنا !

وأجفل حصان القيصر لسماع هذه الضجة المفاجئة ، وهو نفسه الجواد الذى حمل القيصر فى استعرضات روسيا ، وها هو يحمله هنا فى ساحة استرلتز ، متحملا ضربات قدمه اليسرى غير الواعية ، ومرهفاً أذنيه لصوت الطلقات كما أرهفها فى ساحة العرض من غير فهم لهذه الأصوات ، ولا مدركاً قرب حصان الإمبراطور فرنسيس الأسود ، ولا كل ما قاله أو أحسه فى ذلك اليوم الرجل الذى يعتلى صهوته .

والتفت القيصر باسماً إلى أحد رجال بلاطه ، مشيراً إلى مظهر لواء أبشيرون الباسل ، وقال له شيئاً ما .

* * *



- ١٦ -

وصحب كوتوزوف ياورانه ، وتبعوا الرماة بخطوة السير : وبعد أن سار نصف ميل فى ذيل الطابور وقف عند بيت منعزل مهجور (لعله كان يوماً ما خاناً) قرب انشعاب طريقين ، كلاهما يؤدى إلى أسفل التل ، والقوات تسير فى كليهما .

وكان الضباب قد بدأ ينجلى ، وعلى مبعدة ميل ونصف كانت ترى قوات العدو بوضوح على المرتفعات المقابلة . وعن يسار فى الحضيض صار إطلاق النار أوضح من ذى قبل . ووقف كوتوزوف جامداً يتحدث مع جنرال نمساوى . وكان الأمير أندريه يقف إلى الخلف بقليل يرقبهما بانتباه ، والتفت إلى ياور وفى نيته أن يطلب منه منظار ميدان . وقال الياور غير ناظر إلى القوات البعيدة ، بل أسفل التل أمامه :

— انظر ! انظر ! إنهم الفرنسيون !

وبدأ الجنرالان والياور يتجاذبون منظار الميدان ، وتغيرت وجوههم جميعاً وظهر عليها الفزع جميعاً . فقد كانوا يظنون الفرنسيين على بعد ميل ونصف ، وإذا بهم ها هنا فجأة فى مواجهتنا ، وسمعت أصوات تقول :

— أهو العدو ؟... لا ، ... بل انظر ... إنه هو بالتأكيد ... ما معنى هذا ؟

وبالعين المجردة رأى الأمير أندريه إلى اليمين ، أسفلهم ، طابوراً كثيفاً من الفرنسيين يصعد نحو لواء أبشيرون ، ولا يبعدون خمسمائة خطوة عن حيث وقف كوتوزوف .

وقال الأمير أندريه فى نفسه :

— ها هى اللحظة الحاسمة قد حانت ! لحظتى المنتظرة !

وهمز جواده واتجه نحو كوتوزوف وصاح :

— يجب أن نوقف آلاى أبشيرون يا صاحب الفخامة !

ولكن فى هذه اللحظة احتجب كل شىء فى سحابة من الدخان ، وسمعت طلقات قريبة جداً ، وصاح صوت ينطق بالذعر الساذج على أقل من خطوتين من الأمير أندريه :

— هيه يا رفاق ! لقد قضى الأمر !

وكان ذلك الصوت أشبه بأمر ، فإذا الكل يندفعون فى حشد يزداد عدده فى كل لحظة ، يجرون إلى الوراء فى فوضى إلى نفس الموضع الذى ساروا فيه منذ خمس دقائق أمام الإمبراطورين . ولم يكن من العسير كبح هذا الحشد المندفع فحسب ، بل كان من المستحيل تماماً ألا يجتاح هذا الحشد المندفع المرء رغم إرادته ، وحاول بولكونسكى ألا يتركه هذا التيار خلفه ، ونظر حوله بحيرة ، عاجزاً عن إدراك ما يحدث : وكان نيسفنسكى بوجه قرمزى يائس يصيح بكوتوزوف أنه إن لم ينصرف على الفور فسوف يقع أسيراً فى يد العدو بلا ريب : وكان كوتوزوف يقف فى نفس المكان ،

يخرج منديله من جيبه ، ولم يجب : وكان الدم يتدفق من خده : وشق الأمير أندريه طريقه إليه عنوة . وسأله وهو يجد صعوبة فى السيطرة على ارتجاف فكه الأسفل :

ـ أجرحت ؟

وقال كوتوزوف ، وهو يضغط بمنـديله على خـده الجريح ، ومشيراً إلى الجنود الراكضين :

ـ ليس الجرح ها هنا ، بل هناك ! انظر !

وصاح :

ـ أوقفهم !

وفى نفس الوقت اقتنع باستحالة وقفهم ، فضرب جـواده بالسوط وركب إلى اليمين ، ولكن تياراً مندفعاً جديداً من الحشود الفارة غمرته وحملته قسراً إلى الوراء .

لقد كانت القوات تجرى بكثافة شديدة، حتى أن المرء متى صار فى غمار الزحام عسر عليه أن يخرج منه . وكان أحدهم يصيح :

ـ أسرعوا ! فيم هذا التلكؤ ؟

والتفت آخر إلى الوراء ليطلق الرصاص فى الهواء ، وضرب ثالث الجواد الذى كان يركبه كوتوزوف . وبصعوبة شديدة خرج كوتوزوف من التيـار الأيسر ، ركب تتبعـه حاشيته وقد نقصت النصف صوب صوت مدفع قريب منه . واجتهد الأمير أندريه ألا يتركه وراءه كو . . وف ، ورأى وهو يخرج من الزحام الراكض



وقال كوتوزوف ، وهو يضغط بمنديله على خده الجريح ، ومشيرًا إلى الجنود الراكضين : ـ ليس الجرح هاهنا ، بل هناك ! انظر !

بطارية روسية لم تزل تطلق النار وسط الدخان على سفح التل ، والفرنسيون يجرون نحوها . وفوق مستواها بقليل وقف جنود مشاة من الروس لا يتحركون إلى الأمام لمساندة البطارية ، ولا إلى الخلف فى نفس اتجاه الفارين . وانفصل عن جند المشاة جنرال على صهوة جواد وركض نحو كوتوزوف .. ولم يبق من حاشية كوتوزوف سوى أربعة ، كلهم شاحبو الوجوه ، يتبادلون النظرات فى بلادة :

وقال كوتوزوف وهو يلهث لقائد اللواء ، مشيراً إلى الجنود الفارين :

– أوقف هؤلاء المناكيد !

ولكن فى نفس هذه اللحظة ، انهالت الطلقات وهى تئز فوق اللواء وحاشية كوتوزوف كسرب من العصافير ، وكأنها الثأر لكلمات كوتوزوف المهينة . فالفرنسيون كانوا يهاجمون البطارية ، ولمحوا كوتوزوف فصوبوا نيرانهم إليه . ومع هذه الدفعة من النيران تحسس الجنرال ساقه ، وسقط عدة جنود ، والملازم الثانى حامل الراية تركها تسقط من يديه . ووقعت الراية على بنادق أقرب الجنود ، وكان الجنود قد شرعوا فى إطلاق النار بدون أوامر :

وزمجر كوتوزوف فى تعبير عن اليأس ونظر حوله . وهمس بصوت يرتعش بالشعور بالشيخوخة وقلة الحيلة وأشار إلى الكتيبة المندحرة وإلى العدو :

– يا بولكونسكى ما هذا ؟

ولكن قبل أن يتم كلماته هذه كان الأمير أندريه ، ودموع الخزى والعار تتصاعد فى حلقه ، قفز من جواده وجرى نحو الراية ، وصرخ بحشرة طفولية :

– أيها الفتيان ! إلى الأمام ! لقد حانت اللحظة الحاسمة !

وقبض على سارية الراية ، وسمع بارتياح أزيز الطلقات المصوبة بالقطع إليه ، وسقط عدد من الجنود . وصاح الأمير أندريه :

– هوراه !

وهو يقدر بصعوبة على رفع السارية الثقيلة بكلتا يديه ، وجرى إلى الأمام فى اقتناع راسخ بأن كل الكتيبة ستجرى خلفه . والواقع أنه لم يجر وحده إلا بضع خطوات ، ثم شرع جندى يجرى وراءه ، ثم آخر ، ثم الكتيبة بأسرها وهم يهتفون « هوراه ! » لحقوا به . وأسرع ضابط صف وأخذ الراية التى تداعت من ثقلها فى يدى الأمير أندريه ، ولوح بها ، وجرى فى مقدمة الكتيبة . وأمامه رأى رجال مدفعيتنا الذين كان فريق منهم يقاتل ، بينما هجر الآخرون مدافعهم وكانوا يجرون نحوه . ورأى جنود مشاة فرنسيين أيضاً يستولون على خيل المدفعية ويديرون المدافع : وكان الأمير أندريه والكتيبة على مسافة عشرين خطوة من المدافع . وسمع الطلقات تئز فوقه بلا انقطاع والجنود يئنون ويسقطون عن يمينه ويساره . ولكنه لم ينظر إليهم ، لأن عينيه كانتا شاخصتين إلى ما يجرى أمامه : إلى البطارية . واستطاع أن يرى الآن بوضوح شكل رجل المدفعية الأحمر الشعر ، وعليه

شاكو متكسر على أحد الجوانب ، وهو يجذب خرقة إلى جهته ، بينما جندى فرنسى يجذبها إلى الجانب الآخر . واستطاع الأمير أندريه أن يرى بتميز ذلك التعبير الذاهل والقانط فى الوقت نفسه لوجهى الرجلين ، اللذين كانا لا يعيان ما يصنعان :

وتساءل الأمير أندريه وهو يرقبهما « ماذا يصنعان ؟ ولماذا لا يفر الرجل ذو الشعر الأحمر ، ما دام لا يملك سلاحاً ؟ ولماذا لا يطعنه الفرنسى ؟ إنه لن يتسع له الوقت للفرار قبل أن يفكر الفرنسى فى بندقيته ويضربه بكرنوفتها على رأسه ؟ » .

وبالفعل جرى جندى فرنسى آخر إلى المتقاتلين ببندقيته ، ولعله حم قضاء المدفعى الفرنسى الذى لم يدرك ما ينتظره ولم يزل يجـذب الخرقة ويكاد ينتصر : ولكن الأمير أندريه لم ير كيف انتهى هـذا الأمر ، وخيل إليه أن عصا صلبة انهالت من جندى قريب على أم رأسه ، فأوجعته قليلا ، ولكن أسوأ ما فى المسألة أنها شتتت انتباهه ومنعته من رؤية ما كان ينظر إليه .

وفكر فى نفسه : « ما هذا ؟ أنهاوى على الأرض ؟ إن ساقى تخوران من تحتى » وسقط على ظهره . وفتح عينيه على أمل أن يرى ختام الصراع بين الجنود الفرنسيين ورجل المدفعية الروسى ، ومتلهفاً على أن يعرف هل رجل المدفعية الأحمر الشعر قتل أم لا ، وهل تم الاستيلاء على المدافع أم أنقذت ، ولكنه لم ير شيئاً من هـذا كله . فقوقه لم يكن شىء اللهم إلا السماء .. السماء العالية ، غير

الصافية ، ولكنها بالغة العلو ، تحبو فوقها سحب رمادية فى هدوء » :

وما أعظم هدوئها وسلامها وانتصارها ، فهى ليست مثلنا تجرى وتصيح وتتقاتل ، وليست كالفرنسى ورجل المدفعية اللذين يتجاذبان الخرقة بوجهين مذعورين . ما أعظم اختلاف تلك السحب التى تحبو على هذه السماء العالية غير المحدودة . كيف حدث أنى لم أر تلك السماء العالية من قبل ؟ وما أسعدنى لأنى وجدتها أخيراً . أجل ! الكل باطل والكل غش وخداع اللهم إلا تلك السماء اللانهائية . وليس هناك شىء . أجل لا شىء سوى ذلك . وحتى ذلك لا شىء . لا شىء سوى السلام والسكينة . ولله الحمد ! » :

* * *



- ١٧ -

وعلى الجناح الأيمن حيث القوة التى يقودها بجرايتون ، لم تكن المعركة قد بدأت بعد فى الساعة التاسعة . ولم يهتم باتباع طلب دولجوروكوف بأن يتقدم للاشتباك ، ولما كان متلهفاً على الخلاص من كل مسئولية فقد اقترح الأمير بجرايتون على دولجوروكوف أن يرسل رسولا للسؤال عن القائد العام . وكان بجرايتون مدركاً أنه ما دامت المسافة بين الجناح والآخر قرابة ثمانية أميال ، لذا فإن الرسول إن لم يقتل (وهو شىء محتمل جداً) وإن نجح فى العثور على القائد العام (وهو أمر شديد الصعوبة) فمن العسير أن يفلح فى العودة قبل المساء .

ونظر بجرايتون فى حاشيته بعينيه الناعستين الواسعتين الخاليتين من أى تعبير ، وكان أول ما وقع عليه نظره وجه روستوف الطفولى الذى يرتجف كله من شدة الإثارة والرجاء ، فأرسله .

وقال روستوف ويده مرفوعة إلى قبعته :

— وإذا قابلت صاحب الجلالة قبل القائد العام ، يا صاحب السعادة ؟

فقال دولجوروكوف متدخلا قبل أن يجيب بجرايتون :

— يمكنك أن تبلغ الرسالة إلى جلالته .

وعندما أعفى روستوف من نوبة الحراسة ، استطاع أن يحظى

ببضع ساعات من النوم قبل الصباح ، وشعر أنه مرح وجرىء وشديد العزم ، وحركاته متوثبة ، مع ثقة بحسن طالعه ، أى أنه فى حالة مزاجية يبدو معها كل شىء ميسراً وممكناً . فكل آماله قد تحققت ذلك الصباح ، فسوف يحدث اشتباك عام وسيشترك فيه ، وهو فوق هذا فى حاشية أشجع جنرال ، وها هو أكثر من هذا يبعث رسولا فى مهمة إلى كوتوزوف ، بل ربما إلى القيصر نفسه . وإنه لصباح بديع ، وتحته جواد قوى ، وقلبه يفيض بالحبور والسعادة .

وما إن تلقى أوامره حتى همز جواده وركض على طول خط القتال . ركض أولا على امتداد قوات بجرايتون التى لم تتقدم بعد للاشتباك وكانت واقفة بلا حراك ، ثم ركض فى المنطقة التى تحتلها خيالة أوفاروف ، وهنا بدأ يلاحظ نشاطاً وأمارات استعداد للقتال: وبعد أن انتهى من خيالة أوفاروف سمع بتميز أصوات طلقات البنادق وهدير المدافع أمامه . وازدادت النيران علواً وكثافة .

إن الصوت الذى يصل إليه الآن فى نسيم الصباح العليل لم يعد الآن كذى قبل صوت طلقتين أو ثلاث فى فترات غير منتظمة ، ثم قصف مدفع أو مدفعين . وعلى منحدرات التلال أمام براتزن صار يسمع دفعات الرصاص تتخللها طلقات كثيرة للمدافع بحيث لم يميز أحياناً قصف بعضها من بعض لتداخلها ، فاندمجت فى صوت واحد هادر :

واستطاع أن يرى دخان طلقات البنادق يتطاير على سفوح التلال وكأنه يسابق بعضه بعضاً . أما سحب المدافع فكانت تتكون منها سحب تطفو وتتداخل بعضها فى بعض . واستطاع أن يرى من لمعان الحراب فى الدخان أن كتلا من المشاة كانت تزحف هابطة التلال ، مع خطوط ضيقة من المدفعية مع عربات ذخيرتها الخضراء.

ووقف روستوف فوق ربوة وحاول أن يتبين ما يحدث ، ولكن برغم شدة انتباهه لم يستطع أن يفهم ما يرى ، فهناك رجال من نوع ما يزحفون هناك فى الدخان ، وصفوف من القوات تزحف إلى الخلف وإلى الأمام : ولكن لماذا ؟ ومن هم ؟ وأين هم ذاهبون ؟ مستحيل أن يتبين ذلك . ولم تستطع هذه المشاهد والأصوات أن تثير فيه الشعور بثبوط الهمة أو التهيب ، بل زادت فحسب همته وتصميمه :

وكان رد فعله الذهنى على الأصوات التى سمعها « أطلقوا النار عليهم مرة أخرى ! » ومن جديد ركض على امتداد الخط ، متوغلا فى القسم الذى اشتبكت فيه القوات ، وقال لنفسه : « كيف سيكون الحال هناك ، لا أدرى . ولكن كل شىء سيكون على ما يرام » .

وبعد أن تجاوز بعض القوات النمساوية لاحظ روستوف أن القسم التالى من القوات (وهم الحرس) قد تقدم فعلا للاشتباك ، فقال لنفسه :

— هذا أفضل كثيراً ! فسوف أشاهد عن قرب .

وكان راكباً على امتداد خط الجبهة تقريباً . وجاءت كوكبة من الخيالة تركض نحوه وهم جماعة من الأوهلان الروس مرتدين فى فوضى من الهجوم . وعندما مر بهم روستوف لاحظ أن أحدهم تغطيه الدماء ، ولكنه واصل الركض ، قائلا لنفسه : « ليس هذا شأنى ! » .

ولم يكد يركب بضع مئات من الخطوات أبعد من ذلك ، عندما تراءت عن يساره عبر الساحة كلها كتلة كبيرة من الخيالة على خيول سود ، وعليهم أردية عسكرية ناصعة البياض ، تخب نحوه مباشرة ، قاطعه عليه طريق التقدم ، فأكره روستوف جواده على الركض بأقصى سرعته للخروج من طريق هؤلاء الخيالة ، وكان من الممكن له تجاوزهم لو أنهم كانوا يتقدمون بنفس السرعة ، إلا أنهم ظلوا يزيدون من سرعتهم ، حتى أخذ عدة خيول فى الركض ، وصار روستوف يسمع وقع سنابكهم بوضوح متزايد وقعقعة أسلحتهم ، وتبدت له خيولهم بمزيد من التميز ، وكذلك أشكالهم ، بل ووجوههم . إنهم خيالة حرسنا المكلفون بالهجوم على الخيالة الفرنسية التى كانت تتقدم لملاقاتهم .

كانت خيالة الحرس تركض وهى متحكمة فى خيولها . وتمكن روستوف الآن من رؤية وجوههم وسماع كلمة الأمر « اهجموا » نطق بها ضابط وهو يطلق لجواده الأصيل العنان على أقصى سرعة . وصار روستوف فى خطر أن تدهمه الخيل وتدوسه بسنابكها أو حمله

معهم لمهاجمة الفرنسيين ، فركض أمام صفهم بأقصى ما استطاع جواده ، ومع هذا لم يتسع له الوقت للإفلات منهم .

وكان آخر صف الخيالة رجلا فى وجهه آثار الجدرى ضخم القامة ، زمجر بغضب عندما رأى روستوف أمامه مباشرة بحيث لا مفر من ارتطامه به . وكان هذا الخيال من الحرس قميناً بلا ريب أن يقلب روستوف وجواده البدوى (فقد شعر روستوف أنه شديد الضآلة شديد الضعف بجوار هؤلاء الرجال العمالقة وخيولهم الضخمة) لو لم يفكر فى ضرب وجه حصان ذلك الخيال بسوطه ، فارتجفت أذنا ذلك الحصان الثقيل الأسود العالى وأجفل ، ولكن راكبه المشوه بالجدرى أنزله على قوائمه بهمزة قوية فى جنبيه ، وأسرع الحصان أكثر من ذى قبل بعد أن هز ذيله ومد عنقه . وما كاد هذا الخيال يتجاوز روستوف حتى سمع هتافهم « هوراه » فالتفت وراءه ورأى صفوفهم المتقدمة مختلطة بخيالة غرباء لهم كتافات حمراء ، ويحتمل أنهم فرنسيون . ولم يستطع أن يرى شيئاً آخر ، لأن المدافع أطلقت بعد ذلك مباشرة من مكان ما ، وضاع كل شىء وسط الدخان :

وفى اللحظة التى اختفى فيها خيالة الحرس العمالقة الذين مروا به وسط الدخان ، تردد روستوف هل يركض خلفهم أم يمضى قدماً إلى حيث يجب أن يذهب ، فقد كان هذا هو هجوم خيالة الحرس الذى أبدى الفرنسيون أنفسهم إعجابهم به . وذهل روستوف عندما

سمع بعد ذلك أنه لم يبق بعد هذا الهجوم سوى ثمانية عشر من كل هذه الكتلة من الرجال العمالقة الرائعين ، وكل أولئك الضباط الشبان الأثرياء اللامعين وحاملى الأعلام الذين ركضوا بجواره على متون جياد تساوى آلاف الروبلات . وقال روستوف لنفسه :

— لا حاجة بى إلى حسدهم . فنصيبى من المجد لن ينتزع منى ، وربما رأيت الإمبراطور بعد دقيقة .

وواصل الركض . ولما وصل إلى مشاة الحرس لاحظ أن قذائف المدافع كانت تطير فوقهم ومن حولهم . وتبين أثر ذلك لا فى صوت القذائف ، بل بالأكثر من القلق الذى رآه على وجوه الجنود ، ومن الصرامة العسكرية غير الطبيعية على وجوه الضباط .

وفيما هو راكب وراء خط من خطوط ألوية مشاة الحرس سمع صوتاً يناديه بالاسم :

— يا روستوف !

فرد باستفسار عن المتكلم لأنه لم يعرف بوريس . وقال بوريس مفتراً عن تلك الابتسامة السعيدة التى تشاهد لدى الشبان الذين وضعوا تحت النيران لأول مرة :

— لقد وضعونا فى الجبهة ! وزحف لواءنا إلى الهجوم !

ووقف روستوف وقال :

— أحقاً ؟ وكيف جرى هذا ؟

فقال بوريس وقد جره الحماس إلى الثرثرة :

– لقد هزمناهم ! ولك أن تتصور ...

وبدأ بوريس يصف لروستوف كيف اتخذ الحرس مواقعهم ، ورأوا أمامهم قوات فحسبوهم من النمساويين ، ثم اكتشفوا فجأة من قذائف المدافع الموجهة إليهم من تلك القوات أنهم فى خط النار وعليهم بغير توقع أن يتقدموا إلى المعركة . وهمز روستوف جواده ولم ينتظر سماع بوريس إلى النهاية . وسأله بوريس :

– إلى أين أنت ذاهب ؟

– إلى صاحب الجلالة فى مهمة .

– هاك هو !

فلم يكن بوريس قد سمع جيداً وظنه يريد الغراندوق ، فأشار له إليه ، وهو على مسافة مائة خطوة منهم ، مرتدياً خوذة وإزاراً أبيض من أزياء الحرس الخيالة ، وقد رفع كتفيه وقطب حاجبيه وراح يصيح بشىء ما لضابط نمساوى شاحب الوجه فى زيه الأبيض ؛ فقال روستوف :

– إنه الغراندوق، وأنا لابد أن أقابل القائد العام أو الإمبراطور:

وهم بالانطلاق مرة أخرى . ولكن بيرج جرى من الجانب الآخر متلهفاً وصاح :

– يا كونت ! يا كونت ! لقد جرحت فى يدى اليمنى (وأشار إلى يده الملطخة بالدم مربوطة فى منديل) ولكنى صمدت فى مكانى بالجبهة . وأمسكت بسيفى فى يدى اليسرى يا كونت . وجميع أفراد أسرتى كانوا فرساناً ، أعنى آل فون بيرج .

وكان بيرج خليقاً أن يقول له أكثر من هذا ، لولا أن روستوف مضى من غير أن يسمعه .

وبعد أن تجاوز الحرس ، واجتاز مساحة خالية ، مضى روستوف راكباً على امتداد خط الاحتياطى ، لئلا يكون فى طريق خط الجبهة كما حدث له فى هجوم خيالة الحرس ، وقال بدورة طويلة حول المكان الذى سمع فيه أحرّ نيران بنادق وقصف مدافع . وفجأة سمع صوت نيران البنادق بالقرب منه جداً ، أمامه ومن خلف قواتنا ، فى مكان لم يكن يتوقع أن يوجد به العدو . وقال فى نفسه :

– ما عسى أن يكون هذا ؟ العدو فى مؤخرة قواتنا ؟ لا يمكن أن يكون هذا .

ولكن نوبة خوف على نفسه وعلى نتيجة المعركة كلها داهمته فجأة . وجال بفكره :

– ولكن مهما حدث ، لا فائدة من الهرب الآن . إن واجبى أن أبحث عن القائد العام هنا ، وإذا ضاع كل شىء ، فواجبى أن أموت مع الآخرين جميعاً .

وتضخمت نبوءة الشر التى استولت على روستوف فجأة ، وزادت حدتها كلما أوغل فى المنطقة التى خلف قرية براتزن التى كانت غاصة بحشود من القوات من جميع الأنواع .

وظل روستوف يسأل كلما قابل جنوداً نمساويين وروساً يجرون فى حشود مختلطة عبر طريقه :

– ما معنى هذا ؟ ما هذا ؟ على من يطلقون النار ؟ من الذى يطلق النار ؟

وكانت تأتيه أجوبة بالروسية والألمانية والتشيكية من الغوغاء المسرعين ، الذين لم يكونوا أعلم منه بما يجرى :

– الله أعلم ! قتلوهم جميعاً ! اللعنة على كل شىء !

وصاح أحدهم :

– اقتلوا الألمان !

– ليذهبوا إلى الجحيم ! الخونة !

وغمغم ألمانى بالألمانية :

– إنه سباق ضد الروس !

وكان بين هذا الحشد عدد من الجرحى على الطريق . واختلطت بالضوضاء تأوهات وصيحات ولعنات . وبدأ إطلاق النار يقل . واكتشف روستوف فيما بعد أن الجنود الروس والنمساويين كانوا يتبادلون إطلاق النار .

وفكر روستوف فى نفسه :

– رباه ! كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ وهنا حيث من الممكن أن يراهم الإمبراطور فى أى لحظة ... كلا ! لابد أنهم حفنة من المناكيد ، وسينتهى هذا التصرف بعد قليل . فهو ليس التصرف الصحيح . ولا يمكن أن يكون . ويجب على فقط أن أسرع جداً وأمر بجوارهم .

ولم تستطع فكرة الهزيمة والفرار أن تفرض نفسها على دماغ روستوف . ومع أنه شاهد المدافع والقوات الفرنسية فوق تل براتزن ، أى فى نفس البقعة التى أمروه أن يفتش فيها عن القائد العام ، إلا أنه لم يستطع تصديق ذلك .

* * *

- ١٨ -

لقد قيل لروستوف أن يبحث عن كوتوزوف والإمبراطور قرب قرية براتزن . ولكنهما لم يكونا هناك ، ولا أى قائد . لا شىء سوى حشود فوضوية من القوات من أنواع مختلفة . وحث جواده المجهد للإسراع به مخترقاً الغوغاء ، ولكن كلما تقدم زادت فوضوية الحشود . والطريق العام الذى ركب على امتداده كان مزدحماً بالعربات والعجلات من كل نوع ، وبالجنود النمساويين والروس من كل صنف ، الجرحى منهم وغير الجرحى : والضوضاء سائدة والتزاحم شديد تحت أزيز قنابل المدافع الطائرة من البطاريات الفرنسية الرابضة فوق مرتفعات براتزن .

وظل روستوف يسأل كل من يستطيع إيقافه .

— أين الإمبراطور ؟ أين كوتوزوف ؟

ولم يحصل على جواب من أى أحد . وأخيراً أمسك بجندى من تلابيبه وأرغمه على الإجابة . فقال الجندى لروستوف :

— آى يا أخى ! لقد هربوا جميعاً منذ مدة طويلة !

وضحك لسبب ما وخلص نفسه من قبضة بروستوف ، وتركه روستوف وهو يظنه مخموراً ، وأوقف حصان سائس شخصية كبيرة وبدأ يستجوبه . فقال السائس له : إنه منذ ساعة نقل القيصر فى

عربة بكل سرعة على هذا الطريق نفسه ، وأن القيصر كان مجروحاً جرحاً خطيراً . فقال روستوف :

— لا يمكن ! لعله شخص آخر .

فقال السائس بابتسامة متكلفة تنم على الاعتداد بالنفس :

— لقد رأيته بنفسى . وآن لى أن أعرف الإمبراطور فيما أعتقد بعد المرات الكثيرة التى رأيته فيها فى بطرسبرج . وقد رأيته بوضوح شاحباً شحوب الموت ، جالساً فى عربته . ومرقت العربة بكل سرعة تجرها الخيول الأربعة السوداء! ومن المستبعد ألاأعرف خيول القيصر وإيليا إيفانتش ، وإيليا لا يقود عربةً أى أحد اللهم إلا القيصر نفسه !

فأطلق روستوف سراح الحصان وكان على وشك المضى لولا أن ضابطاً جريحاً مر به وخاطبه :

— من تريد ؟ القائد العام ؟ أوه . لقد قتل بقذيفة مدفع أصابته فى صدره أمام لوائنا .

وقال له ضابط آخر مصححاً :

— لم يقتل ، بل جرح .

فسأله روستوف :

— من هو ؟ كوتوزوف ؟

— ليس كوتوزوف ، بل من لا أدرى اسمه . كلهم سواء : فلم يبق على قيد الحياة إلا قلة منهم ، اذهب إلى هذه القرية التى هناك تجد فيها كل القادة .

وأشار الضابط إلى قرية جوستير اديك ، ثم انصرف لحال سبيله .

ومضى روستوف بسرعة السير وهو لا يدرى إلى من هو ذاهب ولا لماذا . فالقيصر جريح ، وقد خسرنا المعركة . ولا سبيل إلى رفض تصديق ذلك الآن . واتجه روستوف إلى حيث أرشدوه ، ورأى عن بعد أبراجاً صغيرة وكنيسة .. وفيم إسراعه الآن ؟ وماذا عساه يقول الآن للقيصر أو لكوتوزوف ، بفرض أنهما على قيد الحياة وغير جريحين ؟

وصاح به جندى :

— سر فى هذا الطريق يا صاحب العزة ، وستقتل فى ثانية .

وقال آخر :

— هراء ! وأين يذهب ؟ هذا الطريق هو الأقرب .

وفكر روستوف وانطلق بالضبط فى الطريق التى قيل له : إنه سيقتل فيها وقال لنفسه :

— لا شىء الآن يهم ، إن كان الإمبراطور قد جرح ، فهل يجوز لى أن أحاول النجاة بنفسى ؟

ودخل المنطقة التى قتل فيها أكبر عدد من الرجال وهم يفرون من براتزن . ولم يكن الفرنسيون قد استولوا بعد على هذه المنطقة ، مع أن الروس الذين لم يجرحوا أو جراحهم يسيرة هجروها منذ مدة طويلة .

وفى أرجاء الميدان ، كحافات الروث المتناثرة فوق حقل جيد الحرث ، أكداس من القتلى والجرحى ، بمعدل حوالى خمس عشرة جثة فى كل ثلاثة أفدنة . أما الجرحى فكانوا يحبون على بطونهم كل اثنين أو ثلاثة معاً ، ولصرخاتهم وأناتهم صوت مؤلم . هكذا بدت الساحة لروستوف . وأجبر جواده على الخبب ليتجنب منظر كل هؤلاء المعذبين وأحس الخوف . لم يكن خائفاً من فقدان حياته بل من فقدان شجاعته التى يحتاج إليها جداً ، ويعلم أنه لا قبل لها بالصمود لمنظر هؤلاء المناكيد العاثرى الحظ .

وكان الفرنسيون قد كفوا عن إطلاق النار فى هذا الميدان الذى تناثرت فيه أجساد الموتى والجرحى ، لأنه لم يعد فيه مخلوق حى . ولكنهم إذا رأوا ياوراً يخب عبره ، صوبوا إليه مدفعاً وأطلقوا عدة قذائف . واندمجت هذه الأصوات المخيفة بأجساد الموتى من حوله فى انطباع واحد من الرعب والإشفاق على نفسه فى دخيلة فؤاده . وفكر فى خطاب أمه الأخير وقال لنفسه :

— ترى ماذا يكون إحساسها الآن لو رأتنى هنا الآن فى ذلك الميدان والمدافع مصوبة نحوى ؟

وفى قرية جوستير اديك كانت قوات روسية . أجل إنها فى حالة اضطراب شديد ، إلا أنها أفضل انضباطاً بكثير بعد عودتهم من ميدان القتال . فهم ها هنا خارج مدى المدافع الفرنسية ، وتبدو

لهم أصوات الطلقات النارية بعيدة عنهم . والجميع ها هنا يدركون بوضوح أنهم خسروا المعركة ، والجميع يتحدثون عنها . ولكن ما من أحد سأله روستوف استطاع أن يقول له : أين القيصر ، أو أين كوتوزوف .. وقال البعض : إن شائعة جرح القيصر صحيحة ، وقال آخرون : إنها غير صحيحة ، وعللوا انتشار هذه الشائعة الكاذبة بأن ناظر القصر تولستوى ، الذى جاء مع كثيرين غيره من حاشية الإمبراطور إلى ساحة المعركة شوهد شاحب الوجه مذعوراً يعود بكل سرعة فى عربة القيصر . وقال أحد الضباط لروستوف إنه شاهد وراء القرية التى على اليسار أحد أفراد القيادة العامة ، فركب روستوف فى هذا الاتجاه ، وهو لا يرجو أن يجد هناك أى أحد ، وإنما هو ذاهب إرضاء لضميره .

وبعد أن مضى حوالى ميلين واجتاز آخر القوات الروسية ، شاهد روستوف قرب حديقة خضراوات يحيط بها خندق فارسين يواجهان الخندق ، فى قبعة أحدهما ريشة بيضاء وبدا له وجهه مألوفاً بعض الشيء ، أما الآخر فغريب فوق حصان كستنائى فخم (وخيل إلى روستوف أنه رأى هذا الحصان من قبل) وهمز هذا الغريب جواده وقفز به بخفة الخندق إلى الحديقة . وتكوم بعض الطين من شط الخندق تحت حافرى جواده الخلفيين . ودار بحصانه وقفز الخندق راجعاً وخاطب صاحب الريشة البيضاء بتوقير ، والظاهر أنه يدعوه أن يحذو حذوه . ولكنه أومأ برأسه وبيده رافضاً . وبتلك

فركب روستوف فى هذا الاتجاه ، وهو لا يرجو أن يجد هناك أى أحد ، وإنما هو ذاهب إرضاء لضميره

الإيماءة عرف روستوف على الفور مولاه المنكود الذى يؤلهه .

وقال روستوف لنفسه :

— ولكن لا يمكن أن يكون هو بمفرده هكذا فى وسط هذا الحقل الخاوى .

وفى هذه اللحظة التفت ألكسندر فرأى روستوف الملامح المحبوبة المطبوعة بعمق فى ذاكرته . وكان القيصر شاحباً غائر الخدين والعينين. ولكن ذلك جعل سحر محياه ودماثته أعمق تأثيراً . وشعر روستوف بالسعادة وقد أيقن ببطلان شائعة جرح الإمبراطور . وأسعده أن يراه . وعرف أنه ينبغى أن يتجه إليه مباشرة ويبلغه الرسالة التى أمره دولجوروكوف بتبليغها .

ولكن كأى مراهق عاشق يرتجف ويغمى عليه ولا يجسر على التفوه بما قضى الليالى الطوال يحلم به ، وينظر حوله فى ذعر بحثاً عن معين أو عن فرصة للتسويف أو الهرب عندما تحين اللحظة التى تاق إليها، فيقف وحده بجوار محبوبته . هكذا أيضاً حال روستوف الآن وقد أدرك ما كان يصبو إليه أكثر من أى شىء فى العالم لم يعرف كيف يدنو من الإمبراطور ، وخطرت بباله ألوف الأسباب التى تجعل من غير المناسب وغير اللائق ، بل ومن المستحيل الإقدام على ذلك :

— ويحى ! لكأنى مسرور بانتهاز فرصة وجوده وحده فى حالة

قنوط . كم يكون من المؤلم له وغير المستحب أن يرى وجهاً غير معروف له فى مثل هذه اللحظة الحزينة . ثم ماذا عساى أقول له الآن ومجرد مرآه يجعل قلبى يخفق خفقاناً شديداً ويقفز إلى حلقى ؟

ولم يستحضر ذهنه الآن أى عبارة من ألوف العبارات التى أعدها لمخاطبة الإمبراطور فى مخيلته . فهذه العبارات كلها معظمها يناسب ظروفاً أخرى ، كظروف النصر . أو فى حالة رقاد روستوف محتضراً بجراحه فيأتى الإمبراطور ليشكره على بطولته وأفعاله المجيدة. فيعبر له عن حبه الذى أثبته له بفعاله . ثم سأل روستوف نفسه :

— وكيف يمكننى الآن أن أسأله عن تعليماته للجناح الأيمن ، والساعة الآن الرابعة وقد خسرنا المعركة ؟ لا . لا يحسن بى أن أركب إليه ، ولا يحق لى أن أقتحم عليه أحزانه . وخير لى أن أموت ألف مرة ولا أتلقى منه نظرة استياء .

وبهذا القرار ركب روستوف مبتعداً والأسى واليأس ملء قلبه، وظل ينظر وراءه باستمرار نحو القيصر الذى ظل واقفاً بجواده فى حالة تردد .

وبينما روستوف يدير هذه الخواطر فى نفسه ويبتعد حزيناً عن القيصر ، اتفق أن ركب النقيب فون تول إلى نفس البقعة، ولما رأى الإمبراطور اتجه إليه مباشرة وعرض عليه خدماته ، وساعده فى عبور الخندق على قدميه . ولما كان القيصر يشعر بالتوعك وبحاجة إلى

الراحة جلس تحت شجرة تفاح ، وظل فون تول واقفاً بجواره :

وعن بعد شاهد روستوف بكل حسد وندم كيف تحدث فون تول مدة طويلة بحرارة إلى الإمبراطور ، وكيف أخفى الإمبراطور الباكى وجهه فى يده وضغط على يد فون تول .

وفكر روستوف أنه كان من الممكن أن يكون فى مكان فون تول ، وغالب بصعوبة دموع التعاطف مع القيصر ، وركب مبتعداً فى يأس تام ، غير عالم إلى أين يذهب الآن ولأى غرض . وكان يأسه أعظم لأن ضعفه هو السبب فى ندمه . فقد كان من الممكن .. ، بل ينبغى أن يذهب إلى القيصر . وكانت هذه فرصة وحيدة لإظهار ولائه للإمبراطور ، ولكنه لم ينتهزها . « ما هذا الذى فعلت ؟ » وأدار رأس جواده وركض راجعاً إلى البقعة التى رأى فيها الإمبراطور ، ولكنه لم يجد الآن أحداً وراء الخندق ، بل هناك عربات نقل فقط ومركبات تمر به . ومن أحد حوذية النقل عرف روستوف أن أركان حرب كوتوزوف لا يبعدون كثيراً فى القرية التى تمضى إليها عربات النقل . فتبعها روستوف :

وأمامه كان حوذى كوتوزوف يقود خيولا عليها أكسيتها . وتبعت الحوذى عربة أمتعة ، وخلف العربة سار خادم مقوس الساقين مرتدياً معطفاً وقال له الحوذى :

– هيه يا تيت !

ورد عليه الخادم الشيخ شارد الذهن .

– ماذا ؟

– تيت يجلد بالسياط ...

فرد عليه الخادم الشيخ وهو يبصق بغضب .

– يا لك من أحمق !

وتلت ذلك فترة صمت ، ثم تكررت نفس المزحة .

وفى الساعة الخامسة مساء كانت المعركة قد خسرت من جميع النواحى وفى كل موضع . ووقعت فى يد الفرنسيين أكثر من مائة مدفع واستسلم برزيبشفسكى هو وفيلقه . وتراجعت الطوابير الأخرى بعد أن خسرت نصف رجالها فى كتل مختلطة . وكل ما تبقى من قوات لنجيرون ودوتوروف تجمعوا معاً فى حالة فوضى على أسيجة وشطوط البرك قرب قرية أوجست .

وفى الساعة السادسة كان إطلاق النيران الوحيد المسموع ضرباً ثقيلا بالمدافع من الجانب الفرنسى من بطاريات عديدة مصطفة على منحدرات براتزن ، وتنصب قذائفها على قواتنا المرتدة . وفى المؤخرة كان دوتوروف والباقون قد لموا شتات كتائبهم وراحوا يطلقون النيران على الخيالة الفرنسيين الذين يتعقبونهم . وكان الظلام قد بدأ يرخى سدوله . وعلى خزان أوجست الضيق حيث جلس الطحان الشيخ سنوات طويلة بمعدات صيده بينا حفيده مشمر القميص يدير السمكة الفضية فى الشبكة ، على ذلك الخزان حيث

درج المورافيون فى ستراتهم الزرقاء لسنوات طويلة على سوق خيولهم وعرباتهم بسلام وأمان وقد غمرهم الدقيق هم وعرباتهم . على هذا الخزان الضيق ، بين عربات الجيش والمدافع ، وتحت حوافر الخيل وبين عجلات العربات ، يتصارع المقاتلون ويدوسون على القتلى ، ويقتل بعضهم بعضاً ، كى يلقى الناجون مصرعهم بعد خطوات معدودات بنفس الطريقة :

وكل عشر ثوان كانت قنبلة مدفع تمرق فى الهواء ثم تنقض ، أو تنفجر قنبلة وسط هذا الحشد فتقتل الرجال وتنثر الدماء على الواقفين بالقرب منهم . وكان دولوهوف المجروح فى يده ، ومعه نحو عشرة جنود من سريته على الأقدام (وقد صار الآن ضابطاً مرة أخرى) وجنراله على حصانه ، هم الممثلون الوحيدون لاواء بأسره. وقد دفعهم تيار الزحام فحشروا عند مدخل الخزان ووقفوا فى أماكنهم مضغوطاً عليهم من كل جانب لأن حصاناً ومدفعاً كانا قد سقطا هناك ، والحشد يحاول جرهما بعيداً . وقتلت قذيفة مدفع أحد الجنود وراءهم ، وسقط آخر أمامهم ولطخ بالدم المتناثر دولوهوف وتحرك الحشد إلى الأمام باستماتة ثم توقف ، ثم تحرك بضع خطوات وتوقف مرة أخرى . وصار كل رجل يقول فى نفسه :

— لابد من عبور هذه المائة خطوة ، أما البقاء هنا دقيقتين فمعناه الموت المؤكد .

ووقف دولوهوف فى وسط الحشد وشق طريقه إلى حافة الخزان ، وصرع فى طريقه جنديين وجرى إلى الثلج الزلق الذى يغطى بركة الطاحون .

وصاح وهو يثب فوق الثلج الذى قعقع تحته :

— تعالوا إلى هذه الناحية .

وتحمله الثلج ، ولكنه تأرجح وقعقع ، وكان واضحاً أنه لو نزل عليه حشد أو مدفع لتداعى . وحملق فيه الرجال وتدافعوا الحافة ، غير مستطيعين الخطو فوق الثلج . ولوح له الجنرال فوق حصانه وفتح فاه ليتكلم عن نهاية الخزان ، وفجأة مرقت قذيفة مدفع على ارتفاع منخفض فوق رءوس الحشد فغاصوا كلهم ، وخر الجنرال صريعاً فى بركة من الدماء . ولم ينظر أحد إلى الجنرال ،ولم يفكر أحد فى رفعه . وارتفعت أصوات كثيرة تصيح بعد مصرع الجنرال :

— إلى الثلج ! اهبطوا إلى الثلج !

وهم لا يعرفون لماذا يصيحون ولا بماذا يصيحون .

وكان أحد المدافع التى على الخزان قد أنزل فوق الثلج ، وبدأ زحام الجنود يجرون من الخزان إلى البركة المتجمدة ، وقعقع الثلج تحت واحد من أوائلهم وتدلت إحدى ساقيه فى الماء ، وحاول أن يحفظ توازنه وغاص إلى خاصرته .. وحاول الجنود القريبون منه

التراجع ، وأوقف سائق المدفع حصانه ، ولكن الصيحات لم تزل تدوى من الخلف :

— انزلوا إلى الثلج ! لماذا توقفتم ؟ أقبلوا ! أقبلوا !

وسمعت صرخات فزع فى الزحام ، وراح القريبون من خيول المدافع يضربونها لتستدير ، وتحركت الخيول من حافة الخزان ؛ والثلج الذى كان تحت أقدام المشاة تكسر إلى قطعة هائلة ، وتدافع نحو أربعين جندياً كانوا فوقه وأغرق بعضهم بعضاً .

ولم تزل طلقات المدافع تئز بانتظام وارتطمت بالثلج ، وبالماء ، وغالباً بين الزحام الذى يغطى الخزان والبحيرة والشط .

* * *

- ١٩ -

كان الأمير أندريه بولكونسكى ملقى على تل براتزن ، فى الموضع الذى سقط فيه وفى يديه سارية الراية ، وكان يتدفق منه الدم ، وظل يئن أنات خافتة شاكية طفولية ، لم يكن هو نفسه يعرف عنها شيئاً . وقرب المساء كف عن الأنين وسكنت أوصاله تماماً . ولم يدر كم استمر غيابه عن الوعى . وفجأة أحس أنه حى ويعانى من ألم محرق ممزق فى رأسه .

وكانت أول فكرة خطرت له : « أين هى تلك السماء الشاهقة العلو التى لم أعرفها من قبل ورأيتها اليوم ؟ وهذا الألم الشديد لم أعرفه أيضاً من قبل . نعم ، لم أكن أعرف شيئاً حتى الآن . ولكن أين أنا؟»

وبدأ ينصت ، ونما إلى سمعه صوت سنابك خيل تقترب وأصوات تتكلم الفرنسية ، ففتح عينيه . فإذا فوقه نفس السماء الشاهقة العلو ، تطفو فيها سحب أعلى من كل ما رآه سابقاً ، وفيما بينها مساحات من اللانهاية الزرقاء . ولم يدر رأسه ولم ير الرجال الذين حكم من أصواتهم ووقع سنابك جيادهم أنهم وصلوا إليه وتوقفوا .

وكان هؤلاء هم نابليون وياوران من حاشيته ، وها هو بونابرت يطوف بميدان المعركة ويعطى تعلياته الأخيرة لتقوية البطارية التى ترمى خزان أوجست ، ويتفقد فى الوقت نفسه الموتى والجرحى فى ميدان القتال .

وقال نابليون ، وهو ينظر إلى قناص روسى وقد انغرس وجهه فى الأرض وهو ملقى على بطنه وذراعه المتخشب ممدود على سعته :

— رجال أشداء !

وقال ياور وصل فى هذه اللحظة من البطارية التى ترمى بقذائفها أوجست :

— مدافع الميدان نفدت ذخائرها .

فقال نابليون وقد تحرك بجواده بضع خطوات ، ووقف ينظر إلى الأمير أندريه الملقى على ظهره وبجواره سارية الراية (أما الراية فقد أخذها الفرنسيون غنيمة) :

— أحضروا مزيداً من الذخائر من الاحتياطى .

وقال وهو ينظر إلى بولكونسكى :

— إنها لميتة كريمة !

وعرف الأمير أندريه أنه قال ذلك عنه ، وعرف أن القاتل نابليون ، لأنه سمع من حوله يقولون له : يا صاحب الجلالة ، وسمع كلماته وهو يسمع أيضاً طنين الذباب . وهو لم يهتم بهذه الكلمات فحسب ، بل لم ينتبه إليها ونسيها على الفور ، فالألم فى رأسه كان حارقاً ، وأحس أنه يفقد دماً ، ورأى من فوقه السماء الشاهقة . وعرف أن ذلك الرجل هو نابليون — بطله — ولكن فى تلك اللحظة بدا له نابليون مخلوقاً بالغ الصغر والتفاهة بالقياس إلى ما كان دائراً الآن بين روحه وتلك السماء الشاهقة غير المحدودة التى تعبر السحب



كان الأمير أندريه بولكونسكى ملقى على تل براتزن ، فى الموضع الذى سقط فيه وفى يديه سارية الراية ، وكان يتدفق منه الدم ..

على صفحتها . فلم يكن هناك أى معنى الآن عن الذى يقف فوقه ولا لما قيل له . وكل ما هناك أنه كان مسروراً لوقوف الناس عنده ، وكل ما يتمناه أن يساعده أولئك الناس ويعيدوه إلى الحياة التى بدت له طيبة جداً ، لأنه يراها الآن بصورة مختلفة . وبذل جهداً فائقاً كى يتحرك ويصدر عنه صوت ، وحرك ساقه حركة ضعيفة وتلفظ بأنة هزيلة تأثر هو نفسه بها . فقال نابليون :

— آه . إنه حى . احملوا هذا الشاب إلى نقالة !

وما إن قال نابليون هذا حتى ركب لمقابلة الماريشال لان الذى ركب لملاقاة الغازى المنتصر باسماً ، رافعاً قبعته ومهنئاً إياه على انتصاره .

ولم يتذكر الأمير أندريه شيئاً أكثر من هذا ، وفقد الوعى من الألم الفظيع الذى سببه له وضعه على النقالة ، والارتجاج الذى عاناه عند تحريكه ، ومن سبر جرحه عند النقالة . ولم يسترد وعيه إلا فى نهاية اليوم عندما أخذوه مع الضباط الروس الآخرين من الجرحى والأسرى إلى المستشفى ، وشعر فى تلك الرحلة ببعض القوة ، وتمكن من النظر حوله ، بل ومن الكلام .

وكانت أول كلمات سمعها عند استرداد وعيه من ضابط فرنسى قال بسرعة :

— يجب أن يبقوا هنا ، فالإمبراطور سيصل إلى هنا فوراً ، وسيسره أن يرى هؤلاء الأسرى .

فقال ضابط آخر :

— ما أكثر الأسرى اليوم ، وهم تقريباً كل الجيش الروس . فلابد أنه مل رؤيتهم .

فقال الضابط الأول مشيراً إلى ضابط روسى جريح فى زى خيالة الحرس الأبيض :

— ولكن هذا الضابط يقال إنه قائد كل حرس الإمبراطور ألكسندر .

وعرف فيه بولكونسكى الأمير ربنين الذى كان قد قابله فى مجتمع بطرسبرج ، وبجواره وقف ضابط آخر من خيالة الحرس ، وهو فتى فى التاسعة عشرة ، مجروح أيضاً .

وأقبل بونابرت يركض بجواده ، وقال عندما رأى الأسرى :

— من هو أكبر الضباط ؟

فذكروا له اسم الكولونيل الأمير ربنين ، فسأله نابليون :

— أأنت قائد آلاى خيالة حرس الإمبراطور ألسكندر ؟

— كنت قائد كتيبة .

— لقد أدى لواءك واجبه بشرف .

— ثناء جنرال عظيم أعظم تحية وأكبر جزاء للجندى .

— وأنا أقدمها لك بكل سرور . ومن هذا الشاب الذى بجوارك ؟

فقال الأمير ربنين : إن اسمه الملازم سوتلين : فنظر إليه نابليون وقال باسماً :

— لقد جاء فى حداثة سنه للاشتباك معنا :

فقال سوتلين بصوت متكسر :

— حداثة السن ليست حائلا دون البسالة :

— رد بديع ! لك مستقبل باهر أيها الشاب :

وكان الأمير أندريه قد وضع تحت عين الإمبراطور ليكمل عرض الأسرى ، ولفت نظره ، لأن نابليون يظهر أنه تذكر رؤيته له طريحاً فى الميدان ، وناداه بنعت « الشاب » لأن هذا كان أول ما استرعى انتباهه فيه حينئذ :

— وأنت أيها الشاب ، كيف حالك الآن أيها الشجاع ؟

ومع أن الأمير أندريه استطاع منذ خمس دقائق أن يقول بضع كلمات للجنود الذين حملوه ، إلا أنه لاذ الآن بالصمت ، مثبتاً عينيه فى نابليون . وبدت له الآن تافهة كل الاهتمامات التى شغلت بال نابليون ، وبدا له بطله تافهاً جداً بغروره وزهوه بالنصر ، بالقياس إلى تلك السماء الشاهقة العلو التى رآها وفهمها ، حتى أنه لم يجد جواباً بل بدا له كل شىء بلا جدوى بالقياس إلى الأفكار التى أثارها فيه ضعفه بسبب فقدان الدم ، وبسبب آلامه ودنو أجله . ولما حدق فى عينى نابليون فكر فى تفاهة العظمة ، والحياة ، التى لا يعرف أحد

لها معنى . وفى تفاهة الموت ، الذى لا يفهم معناه ويفسره أحد من الأحياء .

وبعد أن سكت نابليون بلا جدوى فى انتظار رد ، استدار وقال لأحد القواد :

— تأكد من عنايتهم بهؤلاء السادة وخذوهم إلى مخيمى ، وليفحصهم طبيبى لارى ليداوى جراحهم : إلى اللقاء أيها الأمير ربنين .

وركض بجواده مبتعداً ، ووجهه يتألق بالسعادة والرضا عن الذات .

وكان الجنود الذين حملوا الأمير أندريه قد أخذوا التذكار المقدس الذى كانت أخته الأميرة ماريا قد علقته فى عنقه ، فلما رأوا تلطف الإمبراطور مع الأسرى ، أسرعوا بإعادة الصورة المقدسة : ولم ير أندريه من الذى أعادها إليه ، ولا كيف وضعوها ، ولكنه وجد المدلاة على الفور بسلسلتها الذهبية الرقيقة فوق صدره خارج زيه العسكرى : وخطر بباله وهو ينظر إلى الصورة التى كانت أخته قد علقتها حول عنقه بإجلال وعاطفة جياشة : « ما أطيب أن يكون كل شىء واضحاً وبسيطاً على نحو ما يبدو لما رى . ما أطيب أن يعرف المرء أين ينشد العون فى هذه الحياة وماذا يتوقع بعدها ، هناك فيما وراء القبر ! أجل كم كان يسعدنى ويغمرنى بالسلام لو استطعت الآن أن أقول : « اغمرنى برحمتك يارب !... » ولكن لمن عساى

أقول هذا ؟ إما لقوة لا نهائية غير محسوسة لا يمكننى أن أناشدها ، ولا يمكننى أن أعبر عنها ... أم لذلك الإله المحيك هنا فى هذه القلادة بيدى مارى ؟ لا شىء مؤكد إلا عدمية كل ما نفهمه ، وعظمة شىء لا نفهمه ، لكنه أهم من كل شىء ! » .

وبدأت النقالات تتحرك ، ومع كل رجة شعر بألم لا يطاق : وزادت الحمى ، وبدأ يهذى . وكان مضمون هذيانه رؤى تبدى له فيها أبوه ، وزوجته ، وأخته ، وابنه الذى لم يولد ، والحنان الذى أحسه نحوهم فى الليلة السابقة للمعركة ، وصورة نابليون الضئيل التافه ، وقبل هذا كله صورة السماء الشاهقة . ومرت على مخيلته حياة بيته الهادئة الوادعة السعيدة فى بليك هيلز . وكان ينعم بتلك السعادة عندما ظهر فجأة نابليون الضئيل بنظرته القاسية السعيدة الضيقة إلى شقاء الآخرين ، وراودته شكوك وعذابات ، وكانت السماء وحدها تعده بالسلام . وقرب الصباح تداخلت أحلامه وذابت فى غيبوبة أنسته كل شىء ، وفى ذهنه أن علاج لارى طبيب نابليون من الأرجح أن ينتهى بالموت لا بالشفاء .

وقال لارى :

— إنه عصبى صفراوى ، ولن يشفى .

وتركوا الأمير أندريه مع بقية الحالات الميئوس منها لعناية سكان المنطقة .

* * *

القسم الرابع

- ١ -

فى بداية سنة ١٨٠٦ م كان نيقولاى روستوف عائداً إلى بيته فى إجازة . وكان دينزوف عائداً إلى بيته فى فورونيز ، وأقنعه روستوف بالذهاب معه إلى موسكو وزيارته هناك . وقابل دينزوف رفيقه فى محطة البريد قبل الأخيرة وشرب معه ثلاث زجاجات من النبيذ . وعلى الرغم من ارتجاجات الطريق إلى موسكو نام نوماً عميقاً وهو راقد فى قاع زحافة البريد بجوار روستوف الذى ازداد نفاد صبره كلما اقتربوا من موسكو . وراح يفكر عندما قدما أوراقهما عند أبواب المدينة وشقت الزحافة طريقها إلى موسكو : « أترى سأراها قريباً ، تلك الشوارع بما فيها من محلات الفطائر ومصابيح الطرقات وسائقى الزحافات ؟ » وظل يقول وهو يندفع بكل جسمه إلى الأمام كأنه بهذا الوضع يزيد من سرعة تقدم الزحافة :

— دينزوف ! إننا هنا ! وأنت نائم !

فلا يرد عليه دينزوف فيقول روستوف :

— ها هو ركن تقاطع الشوارع حيث تعود زاهار سائق الزحافة أن يقف ! وها هو زاهار أيضاً ، ومعه نفس الحصان ، وها هو الدكان الصغير حيث تعودنا شراء الكعك . أسرع الآن أيها السائق !

فسأله السائق :

— أى بيت تقصد ؟

— هناك عند نهاية الشارع . هذا البيت الكبير . كيف لا تراه؟ إنه بيتنا بالطبع ! يا ديتروف ! ديتروف ! سنكون هناك بعد دقيقة

فرفع ديتروف رأسه وتنحنح ولم يقل شيئاً . وقال روستوف لخادمه الخاص الذى يجلس على الصندوق :

— يا ديمترى ! إن هذا الضوء فى بيتنا بالتأكيد ؟

— بالتأكيد . وهو الضوء الذى فى مكتب والدك .

— اذهبوا الآن إلى مخادعهم ؟ ماذا تظن ؟ لا تنس أن تخرج لى سترتى الجديدة .

وفتل روستوف شاربه الحديث النمو . وصاح بالسائق :

— هيا أسرع ! وأنت يا فازيا أفق .

وكان ديتروف قد شرع يهوم . أما روستوف فخيل إليه أن الخيل لا تتحرك فصاح بالسائق :

— أسرع ،ولك ثلاث روبلات جديدة فضية لتشرب الفودكا .

وكانوا على بعد ثلاثة بيوت فقط من المدخل . وأخيراً استدارت الزحافة يميناً وولجت المدخل . ورأى روستوف الكورنيش المألوف وقد تكسر بعض الجص فيه ، ورأى الدرج وعمود المصباح ، فقفز من الزحافة وهى تتحرك وجرى إلى أعمدة المدخل . ولم تبد على البيت أمارات الترحيب كأنه لا يعنيه من الداخل إليه . ولم يكن فى

المدخل أحد ، وتساءل روستوف ووقف غائص الفؤاد :

— يا إلهى ! أكل شىء على ما يرام ؟

ثم جرى موغلا فى المدخل وصاعداً الدرج المألوف المعوج : ولكن مقبض الباب الذى كثيراً ما أغضبت قذارته الكونتس ، دار على العهد به . وفى البهو كانت هناك شمعة من الشحم مشتعلة . وميهايلو نائم فى مربضه المعهود .

أما بروكوفى ، الحاجب ، وهو رجل قوى جداً حتى أنه كان قد رفع بمفرده عربة ، فكان جالساً هناك . ونظر إلى الباب الذى انفتح وتحولت أمارات اللامبالاة والنعاس فجأة إلى نشوة ذعر وصاح عندما عرف سيده الشاب :

— يا إله السماء ! إنه الكونت الصغير ! أهذا ممكن ؟ آه يا عزيزى ! ».

واندفع بروكوفى وهو يهتز بالانفعال نحو باب حجرة الاستقبال ، ولعله كان يريد أن يعلن مقدمه ، ثم يبدو أنه غير رأيه ، لأنه عاد وارتمى على كتف سيده الشاب . وسأله روستوف ، وهو يجذب يده منه :

— هل الجميع بخير ؟

— بحمد الله ! نعم ! الجميع بحمد الله ! لقد فرغوا لتوهم من العشاء ! دعنى ألقى عليك نظرة ، يا صاحب السعادة !

— أكل شىء على ما يرام تماماً ؟

— نعم . بحمد الله ! نعم !

ونسى روستوف دينزوف تماماً ، وخلع معطف الفراء بسرعة وحرص على ألا يمهد له أحد الطريق ، وجرى على أطراف أصابعه إلى بهو الاستقبال الكبير المظلم . وكان كل شيء كما هو : نفس مناضد اللعب ، ونفس الشمعدان وعليه غطاء . ولكن شخصاً ما رأى السيد الشاب فعلا ، وما وصل إلى حجرة الاستقبال حتى اندفع شيء ما نحوه كالعاصفة ، وشرع يقبله ويحتضنه . واندفع من باب آخر شخص ثان وثالث ، لمزيد من الأحضان والقبلات والصيحات ودموع الفرح . ولم يستطع أن يتبين أيهم كان بابا ، وأيهم ناتاشا ، وأيهم بتيا . فالكل كانوا يصرخون ويتكلمون ويقبلونه فى نفس اللحظة . أمه فقط لم تكن بينهم ، فيما يذكر .

— وأنا لم أكن أعرف ... يا نيقولاى يا حبيبى !

— ها هو فتانا ... عزيزى كوليا ... ألم يتغير ؟ أين الشموع ؟ الشاى !

— قبلنى مرة أخرى !

— يا عزيزى ... وأنا أيضاً .

فقد كانت سونيا ، وناتاشا ، وبتيا ، وأنا ميهالوفنا ، وفيرا ، والكونت الشيخ ، يحتضنونه جميعاً ، وتقاطرت الخادمات والخدم إلى الحجرة بصيحات الفرح وعباراته .

وتعلق بتيا بساقيه . وظل يصيح :

— وأنا أيضاً !

أما ناتاشا ، فبعد أن جذبته إلى أسفل وقبلت وجهه كله ، فتراجعت بعيداً عنه ، وهى متعلقة بسترته ، وطفرت كالعنزة علواً وسفلا فى نفس موضعها ، وهى تطلق صرخات الحبور . والكل من حوله كانوا عيوناً دامعة تلمع بدموع الفرح ، وشفاها تريد تقبيله.

وتعلقت أيضاً بذراعه سونيا ، وقد صار وجهها كالنسيج الأحمر ، وهى تحدق بانتشاء فى عينيه اللتين طال انتظارها لهما . وهى فى السادسة عشرة تماماً ، جميلة جداً ، ولا سيما فى هذه اللحظة بالذات من لحظات الإثارة السعيدة المتلهفة . وراحت تحدق فيه ، عاجزة عن تحويل عينيها عنه ، وهى تبتسم وتحبس أنفاسها . فنظر إليها نظرة عرفان ، ولكنه فى الوقت نفسه ينظر بتوقع بحثاً عن شخص آخر ، فالكونتس العجوز لم تأت بعد . وها هو الآن يسمع خطوات عند الباب . ولكنها خطى سريعة جداً لا يحتمل أن تكون خطى أمه .

ولكنها كانت هى ، فى ثوب جديد لم يعرفه من قبل ، لأنه حيك لها فى غيابه . وتركه الجميع فجرى إليها ، فلما التقيا ارتمت على صدره منتحبة . ولم تقدر أن ترفع وجهها ، وكل ما استطاعته أنها ضغطته على جدائل سترته المعدنية ، سترة الهوسار . وكان دينزوف قد جاء إلى الحجرة من غير أن يلحظ أحد قدومه ، ووقف ساكناً ينظر إليهم ويفرك عينيه .

وقال دينزوف مقدماً نفسه إلى الكونتس التى نظر إليه متسائلا :

– فاسيلى دينزوف . صديق ابنك !

فقال الكونت وهو يعانق دينزوف ويقبله :

– مرحباً بك . أنا أعرفك ، فقد كتب لنا نيقولاى عنك : ناتاشا . فيرا . ها هو دينزوف !

والتفتت نفس الوجوه المنتشية بالحبور والسعادة إلى دينزوف المشعث وأحاطت به . وصاحت ناتاشا وهى تطفر غير متمالكة نفسها من الحبور فتحتضنه وتقبله :

– يا عزيزى دينزوف !

وارتبك الجميع بسلوك ناتاشا ، واحمر وجه دينزوف أيضاً ، ولكنه ابتسم وتناول يد ناتاشا فقبلها . وأخذوا دينزوف إلى الحجرة المخصصة له ، بينما أحاط آل روستوف جميعاً حول نيقولنكا فى حجرة الأرائك . وجلست بجواره الكونتس العجوز ، متشبثة بيده وراحت تقبلها كل دقيقة . وتكاثر الآخرون حوله يلتهمون كل حركة منه ، وكل نظرة ، وكل كلمة يتفوه بها ، ولا يحولون أبداً عيونهم الوامقة المتحمسة عنه . وكان أخوه وأختاه يتشاجرون ويتخاطفون أقرب مكان إليه ، ويتشاجرون حول من يأتيه بالشاى ، أو بمنديل ، أو بالغليون .

وكان روستوف سعيداً جداً بالحب الذى يظهرونه له ، ولكن أول لحظة فى اللقاء كانت فى قمة السعادة ، حتى بدت له سعادته الآن متواضعة ، ولذا ظل يتوقع المزيد ، ثم المزيد .

وفى الصباح التالى لرحلته نام حتى العاشرة صباحاً . وكانت الحجرة الملحقة بحجرته تتناثر فيها السيوف والحقائب والأغماد ، والحقائب المفتوحة والأحذية القذرة . ومنذ قليل وضع حذاءان نظيفان لهما مهمازان بجوار الحائط . وأحضر الخدم إليه أحواض غسيل اليدين ، وماء ساخناً للحلاقة ، والثياب وقد نظفت جيداً بالفرشاة . وفاحت من الحجرة رائحة رجولية معبقة بالطباق .

وصاح به صوت دينزوف الأجش :

– يا جريشكا هات غليوناً . وأنت يا روستوف انهض !

وفرك روستوف جفنيه اللذين كانا كالمصمغين ، ورفع رأسه الأشعث :

– لماذا ؟ هل الوقت متأخر ؟

فأجابه صوت ناتاشا :

– الوقت متأخر . العاشرة تقريباً .

وسمعا فى الحجرة المجاورة خشخشة تنورات منشاة وضحكات فتيات . وانفرج الباب انفراجة يسيرة ، ولاح شىء أزرق اللون ، وشرائط وشعر أسود ووجوه مرحة . فقد جاءت ناتاشا ومعها سونيا وبتيا ليوقظوه . وسمع صوت ناتاشا مرة أخرى عند الباب تصيح به :

– نيقولنكا ! انهض !

– حالا !

وفى هذه الأثناء كان بتيا قد لمح فى الحجرة الخارجية السيوف ،

وأمسك بها بجبور الصبيان الصغار عندما يرون أخاهم الجندى ، وفتح الباب على سعته ، مع أنه ليس من اللائق أن ترى أختاه الشابين بدون ملابسهما ، وصاح بأخيه :

– أهذا سيفك ؟

فتسللت الفتاتان بعيداً ، وغطى دينزوف ساقيه المشعرين تحت مفرش السرير ، وهو ينظر بذعر إلى زميله يستلهمه العون . ودخل بتيا وأغلق الباب . وسمعت ضحكة متهافتة من خارجه . وقالت ناتاشا :

– اخرج إلينا يا نيقولنكا بالروب .

وسأل بتيا :

– أهو سيفك ، أم سيفك أنت ؟

ملتفتاً باحترام إلى دينزوف القوى الطويل السالفتين .

وبادر روستوف بلبس حذائه وجوربه ، وارتداء روبه وخرج ، وكانت ناتاشا قد لبست فردة حذاء ذى مهماز وكانت على وشك لبس الفردة الأخرى ، وكانت سونيا قد فرغت لتوها من نفخ تنورتها على شكل بالون ، عندما دخل . وكانتا قد لبستا فستانين من اللون الأزرق متماثلين ، وهما متوردتان وفى حالة مزاجية مرحة : وجرت سونيا ، ولكن ناتاشا تأبطت ذراع أخيها وذهبت به إلى حجرة الأرائك ، وبدأ بينهما الحديث . وكانت ناتاشا تضحك لكل كلمة يقولها ، لا لأن ما قاله مضحك ، بل لأنها مستطارة اللب من

المرح ولا تتمالك نفسها ، فيفيض مرحها بالضحك ، وراحت تردد فى كل لحظة :

– ما أجمل هذا ! كم هو رائع ! .

. وتحت تأثير شمس الحب الدافئة شعر روستوف أن روحه ووجهه يبتسمان تلك الابتسامة الطفلية التى كان يفتر عنها قبل مغادرة البيت ، أى منذ عام ونصف .

وقالت ناتاشا وهى تلمس شاربه :

– إنك رجل مكتمل الآن . أليس كذلك ؟ ما أشد فرحى بأنك شقيقى ، وأريد أن أعرف أى نوع من المخلوقات أنتم أيها الرجال . أأنتم مثلنا تماماً ؟ لا .

وسألها روستوف :

– لماذا فرت سونيا ؟

– أوه ! ما أكثر ما يمكن قوله فى هذا الشأن ! كيف ستخاطب سونيا ؟ أبصيغة المفرد أم بصيغة الجمع كالغرباء ؟

– كيفما يواتينى الكلام !

– خاطبها بصيغة الجمع من فضلك ؟ وسأخبرك لماذا فيما بعد ؟

– لكن لماذا ؟

– سأخبرك الآن إذن . أنت تعرف أن سونيا صديقتى لدرجة أنى أحرقت ذراعى من أجلها . انظر !

وشمرت كمها الموسلين وأرته فوق ذراعها الطويلة النحيلة الناعمة

فوق الكوع وقرب الكتف (فى المنطقة التى تغطى حتى بملابس الرقص) لطخة حمراء . وقالت :

— لقد أحرقت هذا الموضع لأريها مبلغ حبي لها . سخنت مسطرة ببساطة فى النار ضغطتها على هذا الموضع .

وكان روستوف وهو جالس فى حجرة دراسته القديمة على الأريكة ذات الوسائد الصغيرة على ذراعيها ، وهو ينظر فى عينى ناتاشا المتحمستين بضراوة ، قد عاد إلى عالم البيت والطفولة الذى لا معنى له عند أى أحد آخر ، ولكنه يمنحه لذة من أعظم ملذات حياته : ولذا لم يصدمه أن يحرق إنسان بمسطرة محماة ذراعه دليلا على الحب ، بل فهمه ولم يدهش له . وسألها :

— وبعد ؟ أهذا كل شيء ؟

— نحن صديقتان حميمتان جداً .. إن المسطرة المحماة لغو فارغ ، ولكننا صديقتان إلى الأبد ، وإذا عشقت هى شخصاً ما ، فهو حب أبدى . وأنا لا أفهم هذا . إنى أنسى بسرعة .

— وماذا بعد ؟

فاحمر وجه ناتاشا جداً فجأة وقالت :

— إنها تحبك وتحبنى ، وأنت تتذكر أنها قالت قبل سفرك أن عليك أن تنسى كل شيء . وقالت لى : سوف أحبه دائماً ، ولكن ليحتفظ بحريته . وما أنبل هذا وأروعه ! هذا شعور نبيل جداً . أليس كذلك ؟

وألقت ناتاشا سؤالها هذا بكل جدية وانفعال ، بحيث اتضح أن ما تقوله الآن سبق لها أن تكلمت فيه ، وهى تذرف الدموع .

وفكر روستوف قليلا ثم قال :

— أنا لا أرجع فى وعدى أبداً . ثم إن سونيا ساحرة جداً، ومن هو الأبله الذى تصل به بلاهته إلى التخلى عن سعادته ؟

فصاحت ناتاشا :

— لا . لا . أنا وهى تكلمنا فى ذلك بالفعل . وعرفنا أنك ستقول لك هذا . ولكن هذا لا جدوى منه ، لأنك إذا عددت نفسك مقيداً بكلمتك ، فكأنما هى قالت ما قالته لك عمداً . أى كأنما صرت مضطراً للزواج منها ، مما يجعل الأمر كله خطأ ...

وتبين روستوف أن الأمر كله كان موضوع بحث بينهما بالتفصيل . وكانت سونيا قد بدت له حسنا بالأمس ، وحين لمحها اليوم بدت فى عينه أملح . فهى فتاة فاتنة فى السادسة عشرة ، وواضح أنها تحبه من كل قلبها (وهذا شيء لا يخامره فيه الشك لحظة) وقال فى نفسه : « ولماذا لا يحبها الآن حتى ولو لم يتزوجها ... ولكن لديه الآن مسرات كثيرة واهتمامات أخرى . وقرارهما هذا جيد جداً ، فلا بد لى أن أبقى حراً » . وقال : « ليكن إذن . سنتحدث فى هذا فيما بعد . آه ! ما أسعدنى بالعودة إليكم . والآن قولى لى ، ألم تخونى بوريس ؟

فصاحت ناتاشا ضاحكة :

– كلام فارغ ! أنا لا أفكر فيه أبداً ولا فى سواه ، ولا أريد أن أفكر .

– ألا تريدين حقاً ؟ إذن ماذا تريدين ؟

فشاع فى محيا ناتاشا ابتسام السعادة وقالت :

– أنا ؟ هل رأيت ديبور ؟

– لا .

– لم تر ديبور الراقص الشهير ؟ إذن لن تفهمنى – هذه أنا !

وقوست ناتاشا ذراعيها ، ورفعت تنورتها كما تفعل الراقصات ، وجرت إلى الوراء بضع خطوات ، ودارت حول نفسها على أخمص قدم واحدة ، ثم ضمت قدميها ووقفت على أخمص قدميها وتحركت إلى الأمام بضع خطوات ، وراحت تقول :

– أترى كيف أقف ؟

ولكنها لم تستطع البقاء على أطراف أصابعها ، ومع هذا أردفت :

– هذا ما أريد أن أكون ! ولن أتزوج أى إنسان ، سأصير راقصة . ولكن لا تخبر بهذا أحداً .

فضحك روستوف ضحكة عالية مرحة جداً ، فشعر دينزوف بالحسد له ، ولم تستطع ناتاشا إلا الضحك معه . وقالت :

– أليس هذا على ما يرام ؟

– بلى . ولكن ألا تريدين الآن الزواج من بوريس ؟

فاستشاطت ناتاشا وقالت :



وقوست ناتاشا ذراعيها ، ورفعت تنورتها كما تفعل الراقصات ، وجرت إلى الوراء بضع خطوات ، ودارت حول نفسها

– لا أريد أن أتزوج أى أحد ، وسأقول له هذا بنفسى عندما أراه .

– حقاً ؟

– ولكن هذا كله هراء .. وقل لى : هل دينزوف ظريف ؟

– نعم . هو ظريف .

– اذهب الآن وارتد ملابسك . هل دينزوف فظيع ؟

– ماذا تعنين ؟ كلا ! فاسكا لطيف ...

– أتناديه فاسكا ... هذا مضحك . ولكن أهو ظريف جداً ؟

– ظريف جداً !

– أسرع إذن لتأتيا لتناول الشاى . سنتناوله معاً .

ووقفت ناتاشا على أخمص قدميها وخرجت من الحجرة على طريقة الراقصات . ولكنها كانت تبتسم كما لا تستطيع الابتسام إلا بنت الخمسة عشر السعيدة . واحمر وجه روستوف عندما قابل سونيا فى حجرة الاستقبال ، ولم يدر كيف يتصرف معها . فبالأمس تبادلا القبلات فى اللحظة الأولى لفرحة اللقاء ، ولكنه شعرا الآن بأن ذلك لا محل له . وفطن إلى أن كل إنسان : أمه وإخوته ينظرون إليه بتساؤل ليروا كيف يتصرف معها .. فقبل يدها وناداها يا سونيا . ولكن عيونهما حينما تلاقت كان حديثهما أرق وأحنى ، وتبادلت عيونهما القبلات . وطلبت عيناها منه الغفران لأنها تجاسرت بتدبير ناتاشا على تذكيره بوعده ، وشكرتاه على حبه . وشكرتها عيناه لأنها

منحته حريته ، قالت لها : إنه على الحالين لن يكف عن حبها ، لأن من المستحيل عليه ألا يحبها .

وانتهزت فيرا لحظة صمت وقالت :

– ما أغرب أن يلتقى الآن نيقولنكا وسونيا ويتحدثان كغريبين.

وكانت ملاحظة فيرا صحيحة ، ككل ملاحظاتها ، ولكنها – لمعظم ملاحظاتها – جعلت الجميع يشعرون بعدم الارتياح ، لا سونيا ونيقولاى وناتاشا فحسب، احمرت وجوههم ،بل الكونتس أيضاً التى كانت خائفة من حب ابنها لسونيا ، لأنه عقبة ممكنة فى سبيل عقده زواجاً باهراً ، فاحمرت مثل الفتيات الصغيرات .

ودهش روستوف لأن دينزوف فى زيه العسكرى الجديد وقد تمشط وتعطر ، بدا شخصية بارزة فى حجرة الجلوس كما فى ميدان القتال . وكان مهذباً فى معاملته للسيدات والسادة بصورة لم يتوقع روستوف أن يراه عليها .

* * *

- ٢ -

عند عودة نيقولاى روستوف إلى موسكو من الجيش استقبلته أسرته استقبال الأبطال ، وأبر الأبناء ، وكادوا يؤلهونه . واستقبله أقاربه استقبال شاب لطيف مهذب ، واستقبله معارفه استقبال ملازم وسيم فى الهوسار ، وراقص مجيد ، وفتى من أحسن الفرسان المرغوبين فى موسكو :

وكل موسكو من معارف آل روستوف ، وكثرت فى يد الكونت الشيخ الأموال ذاك العام ، لأن كل ضياعه قد رهنت : وهكذا تسنى لنيقولنكا أن يكون له جواد سباقه الخاص . وارتداء آخر موضة فى سراويل الركوب من تفصيلة خاصة جداً ، لم يشاهد لها نظير قبل ذلك فى موسكو ، ولديه أيضاً أحذية طويلة من آخر طراز ، ذات مقدم مدبب جداً ، ومهماز صغير من الفضة ، وهكذا توفرت له أسباب تمضية وقته على أحسن ما يكون . وبعد الفترة الأولى القصيرة من التكيف بظروف الحياة القديمة ، شعر روستوف بأنه سعيد جداً بوجوده فى البيت . وأحس أنه كبر وصار رجلا : وصار ينظر إلى يأسه للرسوب فى امتحان الديانة ، واقتراضه النقود من جافريلو لحوذية زحافاته ، وقبلاته المختلسة من سونيا ، على أن هذا كله مرحلة طفولية صار الآن بعيداً عنها غاية البعد . فهو الآن ملازم فى الهوسار ذو سترة لها زخارف من الفضة ، وحائز لصليب

القديس جورج العسكرى . ولديه جواد يدرب للسباق ، ويصاحب رجال السباق المشاهير المحترمون والمتقلمون نوعاً فى السن . وتعرف على سيدة تعيش فى بوليفار وتعود أن يزورها فى المساء . وكان يقود رقصة المازوركا فى مراقص أراروف ، ويتحدث مع الماريشال كامنسكى عن الحرب ، ويستخدم صيغاً بغير كلفة فى الكلام عن الحرب مع عقيد فى الأربعين ، كان قد قدمه إليه ديتروف .

وخفت بعض الشىء عاطفته نحو القيصر ، لأنه لم يعد بإمكانه أن يراه ، ولم يتسن له أن يراه طيلة ذلك الوقت . ولكنه استمر يتحدث عن الإمبراطور وعن حبه له ، بلهجة توحى بأنه لا يصرح بكل شعوره نحو الإمبراطور ، وذلك شىء لم يكن ليفهمه كل إنسان ، وبكل فؤاده كان يشارك الشعور العام السائد فى موسكو من شدة الإعجاب بالإمبراطور ألكسندر بافلوفتش ، الذى كان ينعت يومئذ فى موسكو بأنه « ملاك متجسد » .

وأثناء هذه الإقامة القصيرة فى موسكو ، قبل عودته إلى الجيش ، لم يزدد روستوف قرباً من سونيا ، بل بالعكس تباعد عنها . فقد كانت جميلة جداً وفاتنة ، ومن البدهى أنها كانت تحبه حباً شديداً ، ولكنه كان فى تلك المرحلة من الشباب التى يتراءى فيها لهم أن لديهم الكثير من الشواغل ، وليس لديهم متسع من الوقت للاهتمام بالحب ، ويكره فيها الشاب القيود ، ويعتز بالحرية التى يريدها لأمور كثيرة

غير الحب : وعندما كان يفكر فى سونيا أثناء إقامته بموسكو ، كان يقول لنفسه :

— هناك كثيرات مثلها سأصادفهن ، وهن موجودات الآن فى مكان ما ، وإن لم أعرفهن بعد . وأمامى متسع من الوقت للتفكير فى الحب عندما أشاء ، ولكن لا وقت عندى للحب الآن !

وفضلا عن هذا بدا له المجتمع النسائى أقل بعض الشيء من مستوى كرامته الرجولية .. لذا كان يذهب إلى الحفلات الراقصة وإلى مجتمع السيدات متظاهراً بأنه يقدم على ذلك رغم إرادته : أما حفلات السباق والنادى الإنجليزى ، وسهرات الغناء والقصف مع دينزوف والزيارات الليلية التى تعقب ذلك ، فشيء مختلف : فذلك كله هو الشيء اللائق بهوسار مقدام شاب ؟

وفى بداية شهر مارس، انشغل الكونت الشيخ إيليا أندريفتش روستوف بالتحضير لغداء يقام فى النادى الإنجليزى ، تكريماً للأمير بجرايتون .

ولذا كان الكونت فى روبه المنزلى يذرع البهو الكبير فى بيته للاجتماع بمدير النادى ، فيوكتستا الشهير ، وكبير الطهاة ، ليعطيهما التعليمات المتعلقة بالاسبرجس والخيار الطازج والفراولة ولحم البتلو والسمك ، لعشاء الأمير بجرايتون . ومنذ إنشاء النادى والكونت عضو فيه ، وكان أيضاً أمينه العام ، وقد عهد إليه النادى بترتيبات مأدبة بجرايتون ، لأنه كان من الصعب العثور على آخر يناظره فى

ترتيب مأدبة على نطاق واسع ومحترم ، ومن الصعب أيضاً العثور على آخر على استعداد للإنفاق من ماله الخاص إذا لزم الأمر . وكان الطاهى ومدير النادى يصغيان إلى تعليمات الكونت بكل سرور ، لأنهما يعرفان أنه ليس هناك من هو أفضل منه كى يحصلا على مكاسب خفية من غداء يتكلف عدة ألوف .

— احرصا على أن تكون هناك شرائح سكالوب باتيه :

فسأله الطاهى :

— وفاتحات شهية باردة ... ثلاثة على ما أظن :

وفكر الكونت ثم قال وهو يثنى إصبعه :

— لا يمكن تقديم أقل من ثلاثة فاتحات شهية . ومايونيز واحد:

وسأله المدير :

— إذن فسعادتكم تأمرون بتقديم السمك الضخم ؟

— نعم . لا مفر من هذا إن لم يخفضوا ثمن السمك المتوسط . رباه كدت أنسى ...

وأمسك رأسه بيده وأردف :

— لابد من تقديم فاتح شهية آخر على المائدة . ثم من الذى سيحضر لى الأزهار ؟ يا ميتنكا ! عليك أن تجرى بسرعة إلى ضيعتى بودموسكوفنى قرب موسكو وتقول للبستانى مكسيمكا كى يكلف عبيد الأرض بإحضار زهور الزينة من الصوبات ، وإن عليه إحضار

كل شىء إلى هنا مغلفاً فى اللباد ، ويجب أن تكون عندى هنا يوم الجمعة مائتا أصيص :

وبعد أن أصدر مزيداً من التعليمات من كل نوع ، وكان على وشك الذهاب إلى الكونتس ليستريح ، تذكر شيئاً آخر فعاد مرة أخرى إلى الطاهى والمدير واستدعاهما ، وشرع يصدر إليهما أوامر أخرى : وإذا بهم يسمعون عند الباب خطوة رجولية خفيفة وصليل مهمازين ، ودخل الكونت الشاب وسيماً متورداً ، مسود الشارب ، تلوح عليه السعادة لحياته السهلة فى موسكو . وقال الأب وهو يبتسم لابنه فى خجل :

– آه يا ولدى ! فى رأسى دوامة فتعال لنجدتى ! إننا يجب أن نحضر المغنين أيضاً . لقد اتفقنا مع الموسيقيين ، ولكن ألا ترى أننا ينبغى أن نطلب أيضاً مغنين من الغجر ؟ فأنتم أيها السادة العسكريون شغوفون بهذا النوع :

فقال ابنه باسماً :

– بشرف يا بابا أعتقد أن الأمير بجرايتون بذل طاقة عصبية وهو يستعد لمعركة شونجراين أقل مما تبذله أنت الآن .

وتظاهر الكونت الكبير بالغضب ، والتفت إلى الطاهى الذى كان ينظر بحصافة واحترام منقلا بصره بين الأب والابن .

– ما الذى حدث للشباب يا فيودتسكا ؟ أنهم يضحكون منا نحن الكبار :

– بالطبع يا صاحب السعادة . فكل ما يحسنونه هو تناول عشاء جيد ، أما تحضيره كله وتقديمه ، فليس من شأنهم !

فصاح الكونت وهو يمسك ابنه بكلتا يديه :

– تماماً . تماماً . وها أنا قد أمسكت بك الآن يا نيقولنكا ! اركب زحافة يجرها حصانان هذه الدقيقة واركب إلى بزوهوف وقل له إن الكونت إيليا أندريفتش قد أرسلك لتطلب منه فراولة وأناناساً طازجاً ، فلا سبيل إلى الحصول عليهما من أحد سواه . وإذا لم يكن بالبيت ادخل وبلغ الرسالة إلى الأميرة . ومن هناك تركب إلى الحبينى ، والحوذى إيباتكا يعرف المكان ، وابحث عن اليوشكا هناك ، وهو الراقص الغجرى الذى رقص فى بيت الكونت أورلوف – أتذكر ؟ – فى زى قوزاق أبيض ، وأحضره إلى هنا عندى .

فسأله نيقولاى ضاحكاً :

– وأحضر معه أيضاً فتياته الغجريات ؟

وفى هذه اللحظة دخلت الحجرة بخطى غير مسموعة أنا ميهالوفنا بتواضعها المسيحى الممزوج بمشاغل عملية قلقة ، الذى لا يفارق محياها أبداً . ومع أنها ترى الكونت الكبير كل يوم فى روبه ، إلا أنه كان يرتبك دائماً ، وأسرع بالاعتذار ، فقالت وهى تغلق عينيها بتواضع ووداعة :

– لا عليك من هذا يا عزيزى الكونت .. فأنا ذاهبة لتسوى

لزيارة بيزوهوف الشاب ، فقد وصل ، وسنحصل الآن يا كونت على كل ما نريد من صوبته .. وكنت أريد أيضاً أن أقابله لسبب يتعلق بى ، فقد حول إلى خطاباً من بوريس . وأحمد الله فبوريس الآن فى هيئة الأركان .

وسر الكونت كثيراً لأنها تحملت مسئولية أحد متطلباته ، وأمر بإعداد العربة لها . وسألها :

— قولى لبيزوهوف أن يأتى . سأسجل اسمه . وهل جاء معه بزوجته ؟

فأدارت أنا عينيها إلى أعلى ، واكتسى وجهها بحزن عميق وقالت :

— آه يا عزيزى . إنه شقى جداً ، إن صح ما سمعناه ، لأنه رهيب ؛ ولم يخطر ذلك ببالنا عندما كنا فى غمار الفرح والسعادة ! وهو ذو طبيعة سامية ملائكية ! نعم إنى أرثى له من كل قلبى وسأبذل قصاراى لتقديم التسرية التى أستطيعها له .

فسأل الابن والأب من آل روستوف معاً :

— لماذا ؟ ما المسألة ؟

فصعدت أنا ميهالوفنا زفرة عميقة وقالت فى همس محفوف بالأسرار :

— دولوهوف ، ابن ماريا إيفانوفنا عرضها فيما يقولون

للفضيحة . وكان قد دعمه ودعاه إلى بيته فى بطرسبرج ، والآن .. جاءت هى إلى هنا وجاء وراءها هذا الوغد .

ولم تكن تريد بكلامها إلا إظهار تعاطفها مع بيير ، ولكنها بلهجتها ونصف ابتسامتها عبرت أيضاً عن تعاطفها مع الوغد ، كما تسمى دولوهوف . وأردفت :

— وبيير نفسه ، كما يقولون حطمه تماماً هذا الوضع .

— على كل حال قولى له أن يأتى إلى النادى ، وسيرفه هذا عنه ، فالمأدبة على مستوى كبير .

وفى اليوم التالى ، وهو الثالث من مارس ، فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر كان المائتان وخمسون عضواً فى النادى الإنجليزى ، ومعهم خمسون من ضيوفهم ينتظرون وصول ضيفهم الموقر ، بطل الحملة النمساوية ، الأمير بجرايتون .

وكانت كل موسكو عند تلقى أنباء الهزيمة فى استرلتز قد استولى عليها الذهول . فالروس فى تلك الفترة كانوا قد تعودوا على الانتصارات ، ولذا لم يصدق بعضهم عندما وصلت أنباء الهزيمة ، وراح آخرون يبحثون عن تفسير لمثل هذا الحادث الغريب متذرعين بظروف استثنائية من أى نوع . وفى النادى الإنجليزى حيث يجتمع كل من لهم وزن وكل من لديه معلومات أكيدة . وفى شهر ديسمبر حين بدأت هذه الأنباء تصل لم يقولوا أى شىء عن الحرب وعن الهزيمة الأخيرة ، وكأن هناك مؤامرة صمت . والرجال الذين يمسكون

بزمام الحديث فى النادى ، مثل الكونت روستوبتشين والأمير يورى فراديموروفتش ولجوروكى ، وفالييف ، والكونت ماركوف ، والأمير فيازتسكى ، لم تطأ أقدامهم النادى ، بل كانوا يتقابلون فى بيوت بعضهم البعض .

وذلك القطاع من مجتمع موسكو الذى يتلقى الآراء من الآخرين (وإلى هذا القطاع ينتمى الكونت إيليا أندريفتش روستوف) ظلوا مدة قصيرة بغير قيادة وبغير آراء محددة عن مسار الحرب . وشعر الناس فى موسكو أن شيئاً ما ليس على ما يرام ، ومن الصعب أن يكونوا رأياً عن الأخبار المسيئة ، ففضلوا اللياذ بالصمت . ولكن بعد قليل ، وعلى نحو ما يخرج المحلفون من قاعة مداولتهم ، ظهر قادة الرأى لإعلان رأيهم فى النادى ، فظهرت صيغة واضحة محددة ، واكتشفت الأسباب لتفسير واقع الهزيمة — وكلها لا يصدقها عقل ولم يسمع بها من قبل ، بل ومستحيلة . ولكن صار كل شيء واضحاً ، وجرى تكرير نفس الصياغة من أقصى موسكو إلى أقصاها :
وكانت هذه الأسباب هى خيانة النمساويين ، وقوميساريتهم المعيبة ، وخيانة البولندى برزيبيشفسكى والفرنسى لنجيرون ، وعدم كفاءة كوتوزوف ، وتردد همساً أيضاً كلام عن حداثة سن الإمبراطور وعدم تجربته ، لذا وضع ثقته فى رجال بلا شخصية وبلا قدرات .
ولكن الكل أجمعوا على أن الجيش الروسى كان خارقاً للعادة ، وأنجز معجزات فى البسالة . فالجنود والضباط والجنرالات ، كلهم كانوا

أبطالا .. ولكن بطل الأبطال كان الأمير بجرايتون الذى أثبت امتيازه فى اشتباك شونجراين وفى التراجع من استرلتز ، فهو الوحيد الذى سحب طابوره بنظام حسن ونجح فى صد عدد يبلغ ضعف عدده طول اليوم . وأسهم فى اختيار بجرايتون ليكون البطل الشعبي فى موسكو أنه ليست له صلات فى موسكو . لذا صار فى مقدورهم أن يكرموا فى شخصه الجندى الروسى المقاتل البسيط الذى لا تدعمه اتصالات ولا دسائس ، ولم يزل اسمه مقروناً بذكريات الحملة الإيطالية وباسم سوفوروف . ثم إن إضفاء ، هذا التكريم عليه هو أفضل وسيلة للتعبير عن عدم حبهم واعتراضهم على كوتوزوف .
وقال شنشين الساخر مقلداً عبارة فولتير :
— لو لم يكن هناك بجرايتون ، لكان علينا اختراعه !
وكانت موسكو بأجمعها تردد كلمات الأمير دلجوروكوف :
— اقطع عدداً كافياً من الأشجار فلا يكون لك مفر من قطع إصبعك !
وهو كلام فى ظروف الهزيمة يذكرنا على سبيل العزاء بالانتصارات السابقة ، ويقول روستوبتشين : إن الجنود الفرنسيين لابد من استثارتهم للقتال بالعبارات الطنانة ، وإن الجنود الألمان لابد من برهان منطقى يقنعهم بأن الفرار أخطر عليهم من الثبات والتقدم إلى الأمام ، وأما الجنود الروس فكل ما يحتاجون إليه هو كبحهم لكيلا يتهوروا ! وكثرت النوادر من كل جانب عن البطولات

الفردية التى أبداها جنودنا وضباطنا فى استرلتز . فها هنا أنقذ رجل راية . وآخر قتل خمسة من الفرنسيين . وثالث واظب على تعمير خمسة مدافع بمفرده طول الوقت . وشاعت حكاية عن بيرج – على لسان من لا يعرفونه – أنه بعد أن جرح فى يده اليمنى ، تناول سيفه بيده اليسرى وهجم على العدو . ولم يقل أحد شيئاً عن بولكونسكى ، ومن يعرفونه عن قرب هم الذى أسفوا لموته فى زهرة شبابه ، تاركاً زوجته حاملا ، ووالده الشيخ غريب الأطوار .

* * *

- ٣ -

فى الثالث من مارس كانت جميع حجرات النادى الإنجليزى تمتلئ بالأصوات . كان أعضاء وضيوف النادى ، فى أزيائهم الرسمية وستراتهم الطويلة وبعضهم يضع الدرور ويرتدى قفاطين روسية ، بين وقوف ومقابلة واختراق وجرى فى جميع الاتجاهات كأنهم حشود من النحل تتزاحم أثناء الربيع . وقف الخدم فى بزاتهم المميزة وذرورهم وجواربهم الطويلة وأخفافهم يتابعون باهتمام شديد جميع تحركات ضيوف وأعضاء النادى ، وهم على أهبة الاستعداد لتقديم خدماتهم إليهم ، كانت غالبية الحاضرين من الشخصيات المحترمة المتقدمة فى السن ، لهم وجوه عريضة توحى بالثقة بالنفس ، وإيماءات وأصوات مليئة بالعزيمة . جلس الضيوف والأعضاء من هذه الطبقة فى أماكن معتادة معينة ، وتقابلوا فى دوائر معتادة معينة . أما الضيوف الطارئون فكانوا يشكلون نسبة صغيرة من الحاضرين ، وهم غالباً من الشباب ، ومنهم دنيزوف وروستوف ودولوهوف الذى أصبح مرة أخرى ضابطاً فى فرقة سميونوفسكى . اكتست وجوه الشباب ، خاصة الضباط منهم بتعبير ينم عن الاحترام والتواضع نحو الذين يكبرونهم ، فكأنهم يقولون للجيل الأكبر سناً : « نحن على استعداد لاحترامكم وتبجيلكم ، لكن على كل حال تذكروا أن المستقبل لنا » . كان نيفيتسكى ، وهو عضو قديم بالنادى ، موجوداً أيضاً . وكان بيير ، الذى أطال شعره وخلع نظارته بناء على أوامر زوجته ،

يطوف بالحجرات مرتدياً أحدث الأزياء ، ولكنه بدا مكتئباً حزيناً. لقد كان محاطاً هنا ، كما هو فى كل مكان آخر ، بمجموعة من أناس يعربون عن ولائهم لثرائه ، وكان يعاملهم بنوع من الإهمال والتعالى الملكى الذى أصبح عادة من عاداته .

من حيث العمر كان ينتمى إلى جيل الشباب ، لكنه نظراً لثرائه واتصالاته كان عضواً فى دائرة الأكبر سناً ، وهكذا كان يتنقل من مجموعة إلى أخرى . وكان مركز كل مجموعة يتكون من أشهر أعضائها القدامى، وكان الجميع حتى الغرباء يقدمون فيها باحترام .. ليستمعوا إلى كلمات المشاهير . تكونت المجموعات الكبيرة حول الكونت روستوبتشين وفالييف وناريشكين . كان روستوبتشين يصف كيف تم سحق الروس تحت أقدام النمساويين الفارين ، وكيف اضطروا إلى فتح طريق لأنفسهم بأسنة الحراب بين الهاربين . وكان فالييف يروى للمحيطين به ، بمنتهى الثقة ، أن يوفاروف قد أرسل من بطرسبرج للتأكد من حالة الرأى فى موسكو فيما يتعلق باسترلتز :

فى المجموعة الثالثة ، كان ناريشكين يعيد حكاية اجتماع مجلس الحرب النمساوى الذى حاكى فيه سوفوروف صياح الديك، رداً على غباء جنرال نمساوى . حاول شنشين ، الذى كان قريباً ، أن يلقى بنكتة ، فقال : إنه يبدو أن كوتزوف لم يستطع حتى أن يتعلم من سوفوروف فن محاكاة صياح الديك ، وهو أمر ليس بالعسير . لكن أعضاء النادى القدامى نظروا إلى هذه النكتة بصرامة ، مما جعله

يفهم أن مثل هذه الإشارة إلى كوتزوف ليست بالشيء اللائق فى ذلك اليوم .

ظل الكونت إيليا أندريتش روستوف قلقاً يسرع الخطى فى حذائه الطرى العالى الساق من وإلى قاعة المائدة وقاعة الاستقبال ملقياً بتحيات متعجلة إلى الأشخاص المهمين وغير المهمين الذين كان يعرفهم جميعاً ويعاملهم كلهم على قدم المساواة . وبين حين وآخر كانت عيناه تبحثان عن شخص ابنه الأنيق الرشيق، ثم تستقران بجذل عليه ويغمز له. كان روستوف الشاب واقفاً عند النافذة مع دولوهوف الذى تعرف إليه أخيراً وكان يقدر معرفته تقديراً كبيراً . ذهب الكونت الشيخ إليهما وصافح دولوهوف :

« أرجو أن تحضر لزيارتنا . إذن فأنت صديق لابنى الشاب ... كنتما معاً ، تلعبان لعبة الأبطال هناك ... آه ! فاسيلى اجناتيتش ... طاب يومك أيها الصديق القديم » واستدار إلى رجل عجوز محترم كان قد دخل لتوه ، ولكن قبل أن يتم تحيته عم الاضطراب المكان، ودخل خادم يعدو وعلى ملامحه سيماء القلق وأعلن « لقد وصل ! » .

دقت الأجراس ، واندفع أمناء النادى إلى الأمام ، وتجمع الضيوف ، الذين كانوا متناثرين فى حجرات مختلفة ، فى كتلة واحدة مثل حبات القمح المصبوبة فى مجرفة ، وانتظروا عند باب قاعة الاستقبال الكبرى .

ظهر شخص بجرايتون عند باب حجرة الانتظار دون قبعته

وسيفه ، اللذين تركهما مع حاجب القاعة طبقاً لتقاليد النادى . لم يكن مرتدياً قبعة من فراء الاستراخان ، ولم يكن على كتفه سوط ركوب مثلما كان فى الليلة التى سبقت معركة استرلتز عندما رآه روستوف ، ولكنه كان مرتدياً زياً جديداً محبوكاً تعلوه أوسمة روسية وأجنبية ، ويعلو الناحية اليسرى من صدره وسام نجمة القديس جورج .

كان واضحاً ، طبعاً بسبب المأدبة ، أنه قد انتهى لتوه من حلاقة شعره وقص ذقنه مما غير من مظهره إلى الأسوأ . كانت له سمة من المرح الاحتفالى الساذج ، أدت عند اقترانها بملامحه الرجولية الحازمة إلى إعطاء وجهه طابعاً يميل بوضوح إلى الهزل . توقف بكلشوف وفيدور بتروفتش يوفاروف ، اللذان حضرا معه ، عند المدخل فى محاولة لجعله يتقدمهما بوصفه أكثر الضيوف أهمية . لكن بجرايتون ارتبك وأبى أن يقبل مجاملتهما مما أدى إلى توقف مفاجئ فى المراسم عند الباب ، لكن فى نهاية الأمر قبل بجرايتون أن يكون أول الداخلين . سار بحياء وارتباك على باركيه حجرة الاستقبال ، وهو لا يكاد يعرف ماذا يصنع بيديه . وبدا أنه سيكون أكثر ارتياحاً وثقة لو كان يسير فى حقل محروث تحت النيران المتساقطة ، كما سار على رأس فرقة كورسك فى شنجرابن .

استقبله أمناء النادى عند الباب الأول ، وبعد أن قالوا كلمات قليلة تعبر عن سعادتهم لرؤية ضيف جليل مثله ، أحاطوا به دون انتظار لرد منه ، وامتلكوا قياده وساقوه إلى قاعة الاستقبال . كان

من المستحيل الوصول إلى باب قاعة الاستقبال بسبب جموع الأعضاء والضيوف الذين راحوا يتدافعون فى محاولات لرؤية بجرايتون من فوق أكتاف بعضهم البعض ، وكأنما هو وحش من نوع نادر . وتصاعدت ضحكات الكونت إيليا أندريتش أكثر من أى شخص آخر ، واستمر يكرر « افسح الطريق له يا ولدى العزيز ، افسح الطريق ، افسح الطريق » ، وأزاح الجموع جانباً ، وقاد الضيوف إلى قاعة الاستقبال ، وأجلسهم على أريكة فى منتصفها . وأحاط العظماء وأعلى أعضاء النادى قدر الضيوف الذين وصلوا لتوهم .

غادر الكونت إيليا أندريتش قاعة الاستقبال شاقاً طريقه للمرة الثانية بين الجموع ثم ظهر بعد دقيقة واحدة ومعه أحد أمناء النادى ، يحمل طبقاً فضياً كبيراً قدمه إلى الأمير بجرايتون . استوت على الطبق قصيدة نظمت وطبعت تكريماً للبطل ، عندما رأى بجرايتون الطبق تلفت حوله فى فزع كأنه يطلب العون . لكنه رأى فى كل العيون أنهم يتوقعون منه الخضوع .

لما شعر بجرايتون أنه تحت سيطرتهم ، أخذ الطبق بعزم فى كلتا يديه ونظر إلى الكونت الذى أحضره نظرة لوم . أخذ شخص ما الطبق من بجرايتون بصورة غير رسمية (فيبدو أنه إن لم يفعل ذلك لظل بجرايتون يحمله حتى هبوط الليل ولكان قد أخذه معه إلى المائدة) ولفت انتباهه إلى القصيدة . بدا بجرايتون وكأنه يقول : « حسناً ، إذن سأقرؤها » ، ثم ثبت عينيه المرهقتين على الورقة وبدأ يقرأ وقد

اكتسى وجهه بتعبير جاد يفيض تركيزاً . ثم أخذ مؤلف الأبيات القصيدة وبدأ يقرؤها بنفسه بصوت مرتفع . أحنى الأمير بجرايتون رأسه وأنصت :

« أنت فخر عهد ألكسندر !
احفظ لنا تيتوسنا على العرش !
أنت بطلنا وسند وطننا !
أنت قلب نبيل ، أنت قيصر فى ساحة الوغى !
عندما كان نابليون فى قمة مجده .
تعلم بعد أن دفع الثمن غالياً أن يخشى اسم بجرايتون ، لن يجرؤ عدو أن يتحدى روسيا مرة أخرى ... إلخ » .

لكن قبل أن ينتهى من قراءة القصيدة ، صاح كبير الخدم بصوت جهورى « العشاء جاهز ! » وانفتح الباب ودوت من قاعة الطعام نغمات البولونيز « أطلقوا صيحة النصر نشيد الاحتفال أيها الروس الشجعان » ، نظر الكونت إيليا أندريتش بغضب إلى المؤلف الذى كان مستمراً فى قراءة أبياته ، وانحنى لبجرايتون كإشارة للدخول . نهض الجميع شاعرين أن العشاء أكثر أهمية من القصيدة ، ومرة أخرى تقدم بجرايتون الجميع إلى العشاء . أجلسوا بجرايتون فى مكان الصدارة بين اثنين اسميهما ألكسندر – بكلشوف وناريشكين – (كان هذا أيضاً متعمداً كإيماءة إلى اسم القيصر) . جلس ثلاثمائة شخص إلى الموائد طبقاً لرتبهم وأهميتهم ، فكلما ارتفعت مرتبة

الشخص جاء مكانه أقرب إلى مكان الضيف العظيم – تماماً كما ينساب الماء حتى يجد مستواه الصحيح :

قدم الكونت إيليا أندريتش ابنه إلى الأمير قبل العشاء مباشرة : عرفه بجرايتون ونطق كلمات قليلة مرتبكة مبهمة ، تماماً مثل كل ما قاله فى ذلك اليوم . ونظر الكونت إيليا أندريتش بفخر جذل إلى كل الحاضرين عندما كان بجرايتون يتحدث إلى ابنه .

جلس نيقولاى روستوف فى وسط المائدة تقريباً مع دنيزوف ودولوهوف الذى تعرف إليه حديثاً ، وفى مواجهتهم جلس بيير مع الأمير نسفيتسكى . وجلس مع أمناء النادى الآخرين فى مواجهة بجرايتون الكونت إيليا أندريتش ، التجسيد الأمين لكرم ضيافة موسكو ، يصنع كل ما فى وسعه ليزيد من استمتاع الأمير بالمأدبة :

لم تذهب جهوده سدى . فقد كانت المأدبة – أطباق اللحوم والأطباق الملائمة للصائمين على السواء – فاخرة ، ومع هذا لم يشعر بالارتياح التام حتى نهاية العشاء . ظل يرسل الإشارات إلى مقطع اللحم ، ويهمس بالتوجيهات إلى الخدم ، ويترقب بانفعال الأطباق المنتظرة . كان كل شيء رائعاً . مع الطبق الثانى ، وهو سمكة عملاقة من أسماك الحفش (تورد وجه إيليا أندريتش بسعادة واستحياء عند رؤيتها) بدأ الخادم فى فتح زجاجات الشمبانيا وصبها فى الأقداح . بعد السمك الذى أثار الإعجاب ، تبادل الكونت إيليا أندريتش النظرات مع أمناء النادى الآخرين . همس قائلا : « هناك عدد كبير

من الأنخاب ، حان وقت البدء ! » ثم نهض وفى يده قدح . صمت الجميع انتظاراً لما سيقوله .

صاح الكونت : « فى صحة عاهلنا ، الإمبراطور ! » وعلى الفور ترغرغت عيناه بدموع السعادة والحماس ، وفى تلك اللحظة بدأت الموسيقى تعزف « أطلقوا صيحة النصر ! » نهض الجميع من مقاعدهم وصاحوا « مرحى ! » وصاح بجرايتون « مرحى ! » بنفس الصوت الذى صاحها به فى الميدان فى شنجرابن . كان صوت روستوف الشاب المتحمس مسموعاً فوق الأصوات الثلاثمائة الأخر . وكانت دموعه على وشك الانسياب . زأر « فى صحة عاهلنا الإمبراطور . مرحى ! » وأفرغ قدحه فى جرعة واحدة ثم ألقاه على الأرض . وتبعه الكثيرون . استمرت الصيحات العالية لمدة طويلة . وعندما انحسر الضجيج ، أزاح الخدم الزجاج المكسور ، وبدأ الجميع فى الاستقرار مرة أخرى ، ثم بدءوا يتحدثون مبتسمين للضجة التى أثاروها . نهض الكونت إيليا أندريتش مرة أخرى ونظر إلى ورقة موضوعة بجوار طبقه ، ثم اقترح نخباً فى صحة بطل حملتنا الأخيرة ، الأمير بيوتر إيفانوفيتش بجرايتون ، ومرة أخرى ترغرغت عينا الكونت الزرقاوان بالدموع . ومرة أخرى صاح ثلاثمائة صوت من الضيوف « مرحى ! » فى هذه المرة ، بدلا من الموسيقى بدأت مجموعة من المغنين تغنى أغنية نظمها بافل إيفانوفيتش كوتزوف :

« لا تستطيع أى معوقات أن تغلق طريق الروس ،

البسالة هى ضمان النصر ،

لدينا أعداد من بجرايتون ..

أعداءنا سيركعون عند أقدامنا ... » إلخ .

وبمجرد أن انتهى المغنون من غنائهم ، تتابعت أنخاب وأنخاب ، ومعها تزايد تأثر الكونت إيليا أندريتش ، وتحطمت المزيد من الأقداح ، وتصاعد المزيد من الضجيج . شربوا فى صحة بكلشوف وناريشكين وبوفاروف ودولجوروكوف وابراكسين وفالييف ، وفى صحة أمناء النادى وأعضاء المجلس وأعضاء النادى ، وكل ضيوف النادى ، وأخيراً شربوا فى صحة منظم المأدبة ، الكونت إيليا أندريتش . عند هذا النخب الأخير ، أخرج الكونت منديله وأخفى فيه وجهه وانهار تماماً .

* * *



- ٤ -

كان بيير جالساً فى مواجهة دولوهوف ونيقولاى روستوف . ومثلما يفعل دائماً ، أكل بشراهة وشرب كثيراً . ولكن حتى الذين كانوا يعرفونه معرفة طفيفة ، كان باستطاعتهم أن يروا أن هناك تغييراً عظيماً يجرى فى داخله فى ذلك اليوم. كان صامتاً طوال العشاء، يرمش بعينيه ويغمضهما نصف إغماضة ، يتفحص ما حوله أو يترك عينيه تستقران على شىء ما وهو شارد الذهن تماماً ، ثم يدلك قصبة أنفه بإصبعه . كان وجهه مكتئباً مظلماً . وبدا كأنه لا يرى ولا يسمع ما يدور حوله ، وكأنه يفكر فى شىء معين مؤلم ومحير .

نتجت هذه المسألة المحيرة التى أثارت قلقه عن تلميحات ابنة عمه الأميرة فى موسكو المتعلقة بالعلاقة الحميمة بين زوجته ودولوهوف وعن خطاب غفل من التوقيع تلقاه فى ذلك الصباح ، ملىء بسخرية قذرة مستغربة فى مثل هذا النوع من الخطابات . يقول الخطاب : إنه فيما يبدو لا يستطيع أن يرى بوضوح من خلال نظارته ، وإن علاقة زوجته بدولوهوف لم تعد سراً على أحد إلاه . لم يصدق بيير تماماً تلميحات الأميرة أو الخطاب الغفل من التوقيع ، ولكنه كان خائفاً من النظر إلى دولوهوف الجالس أمامه . فكلما التقت عيناه، مصادفة، بعينى دولوهوف الجميلتين الوقحتين ، أحس بيير كأن شيئاً فظيعاً بشعاً يفور فى أعماقه ، وأسرع يحول نظره بعيداً . وعلى الرغم من إرادته، راح بيير يستعرض ماضى زوجته ومواقفها تجاه دولوهوف.

فبدا له واضحاً أن كل ما قيل فى الخطاب قد يكون صحيحاً تمام الصحة أو على الأقل يبدو صحيحاً ، وتمنى لو لم يكن الأمر متعلقاً بزوجته . لم يستطع بيير إلا أن يتذكر كيف عاد دولوهوف ، الذى كان قد أعيد إلى رتبته كاملة ، إلى بطرسبرج ، وجاء لزيارته . استغل دولوهوف صداقته مع بيير منذ أيام المشاكسة القديمة ، وجاء رأساً إلى منزله ، ووطد بيير إقامته فى المنزل وأقرضه مالا . وتذكر بيير كيف عبرت إلين مبتسمة عن عدم رضاها من إقامة دولوهوف فى منزلها ، وكيف امتدح دولوهوف بسخرية جمال زوجته ، وكيف أنه لم يتركهما على الإطلاق منذ ذلك الوقت إلى أن جاءا إلى موسكو .

« حقاً ، إنه وسيم جداً » فكر بيير ، « إننى أعرفه . سيفتنه بشكل خاص أن يلحق العار باسمى وأن يضعنى موضع السخرية فقط ، لأننى أجهدت نفسى فى سبيله واصطفيته صديقاً وساعدته . إذا كان هذا صحيحاً ، فإنى أعرف وأفهم أى لذة سيضفيها بالتأكيد على خيانته لى. لا حق لى فى هذا ولا أستطيع تصديقه » . وتذكر التعبير المرتسم على وجه دولوهوف فى لحظات قسوته، على سبيل المثال عندما قيد ضابط البوليس إلى الدب وألقاه فى الماء ، أو عندما تحدى رجلا إلى النزال دون أى استفزاز ، أو عندما أطلق نيران مسدسه على جواد سائق زحافة الجليد فأرداه قتيلا . نفس هذا التعبير غالباً ما يعلو وجه دولوهوف عندما ينظر إليه .

« حقاً إنه شخص دائم التنمر للنزال » ، فكر بيير، وإن قتل رجلا

آخر لا يعنى شيئاً لديه على الإطلاق ، لابد أنه يظن أن كل الناس تخشاه . لابد أنه يحب هذا . لابد أنه يظن أننى أخشاه . فى الحقيقة ، أنا حقاً أخشاه » .

استغرق بيير فى تأملاته ، ومع هذه الأفكار أحس ثانية كأن شيئاً فظيعاً بشعاً يفور فى أعماقه . كان دولوهوف ودنيسوف وروستوف يجلسون فى مواجهته وأمارات السعادة بادية عليهم . وكان روستوف يتحدث بمرح إلى صديقيه ، أحدهما ضابط هوسار جرىء ، والآخر وغد منازل سيئ الصيت ، وبين الحين والحين يلقى بنظرة ساخرة إلى بيير الذى لفت مظهره فى المأدبة الأنظار بشروده وانشغاله ، وهيكله الضخم . نظر روستوف بازدراء إلى بيير . أولا لأن بيير كان فى نظر ضابط الهوسار الأنيق مدنياً غنياً متزوجاً بإحدى الجميلات ، ولكنه إجمالا كان كأنه امرأة عجوز . وثانياً لأن بيير ، بسبب انشغاله وشروده ، لم يلاحظ انحناءة التحية التى صدرت عن روستوف ولم يرد عليها . وعندما نهض الجميع لشرب نخب صحة القيصر ، لم ينهض بيير ، الذى كان مستغرقاً فى أفكاره ، ولم يرفع قدحه .

« ماذا بك ؟ » صاح فيه روستوف ناظراً إليه بعينين مليئتين بالغيظ والحنق . « ألم تسمع : نخب صحة عاهلنا الإمبراطور ! » .

أطاع بيير متنهداً ، ونهض ، وأفرغ قدحه ، وانتظر حتى جلس الجميع ثانية ، ثم التفت نحو روستوف بابتسامة رقيقة وقال :

« عجباً ، إننى لم أعرفك » ، ولكن روستوف كان منشغلا عنه ، وكان يصيح « مرحى ! » .

قال دولوهوف لروستوف : « لماذا لا تجدد المعرفة ؟ » .

قال روستوف : « آه ، دعك منه ، إنه أحمق » .

قال دنيسوف : « يجب على المرء أن يكون لطيفاً مع أزواج الجميلات » . لم يسمع بيير ما كانوا يقولونه ، ولكنه كان يعرف يتحدثون عنه . احتقن وجهه واستدار مبتعداً عنهم . قال دولوهوف وهو يستدير نحو بيير وعلى وجهه تعبير جاد ، رغم ابتسامة خفية على جانبى فمه : « حسناً ، لنشرب الآن نخب النساء الجميلات » .

قال : « فى صحة النساء الجميلات ، يا بتروشا ، وفى صحة عشاقهن أيضاً » .

رشف بيير من قدحه وعيناه منكستان دون أن ينظر إلى دولوهوف أو يجيبه . وضع الحاجب الذى يوزع نسخ أغنية كوتوزوف نسخة بجوار بيير باعتباره واحداً من أسمى الضيوف مقاماً كان على وشك أن يتناولها ، لكن دولوهوف مال إلى الأمام واختطف الورقة من يده وبدأ يقرؤها . نظر بيير إلى دولوهوف ، ثم نكس عينيه ، وبدأ الشىء الفظيع والبشع الذى كان يعذبه طوال العشاء يتصاعد بداخله ويتولى قياده . انحنى بكامل جثته الضخمة عبر المائدة وصاح : « إياك أن تتجاسر وتأخذها ! » .

التفت نسفيتسكى والجالس على يمينه فى سرعة وانزعاج إلى بيزوهوف عندما سمعا الصيحة ورأيا إلى من كانت موجهة .

همست أصوات مذعورة : « صه ، صه ، ماذا بك ؟ » وبنفس الابتسامة ، نظر دولوهوف إلى بيير بعينيه الصافيتين الضاحكتين القاسيتين وكأنه يقول : « هيا الآن ، هذا ما أريده » .

قال بوضوح : « لن أتنازل عنها » .

انتزع بيير النسخة وقد شحب لونه وارتعشت شفتاه :

« أنت ... أنت ... وغد ! ... إننى أتحداك » ، قالها وهو يدفع كرسيه إلى الوراء وينهض عن المائدة . فى اللحظة التى فعل بيير فيها هذا ونطق هذه الكلمات ، شعر أن السؤال عن ذنب زوجته الذى كان يعذبه خلال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة قد تمت الإجابة عنه أخيراً وبصورة قاطعة بالإيجاب . لقد كرهها وانفصل عنها إلى الأبد . ورغم تضرعات دنيسوف بألا يكون لروستوف أى شأن بهذا الموضوع ، قبل روستوف أن يكون شاهد دولوهوف ، وبعد العشاء ناقش مع نسفيتسكى ، شاهد بيزوهوف ، ترتيبات النزال .

كان بيير قد ذهب إلى منزله ، ولكن روستوف ومعه دولوهوف ودنيسوف بقوا فى النادى إلى ساعة متأخرة من المساء يستمعون إلى الغجر والمغنين .

قال دولوهوف ، وهو يفترق عن روستوف على سلم النادى : « إذن ، إلى اللقاء حتى الغد فى سوكولنيكى » .



لكن دولوهوف مال إلى الأمام واختطف الورقة من يده وبدأ يقرؤها ..

تساءل روستوف : « أتشعر أنك هادئ تماماً ؟ »

توقف دولوهوف :

« حسناً ، انظر ، سأفضى إليك بسر المنازلة بكامله فى كلمتين : إذا كتبت وصيتك وخطابات طويلة إلى أسرتك قبل أن تذهب إلى منازلة ، وإذا فكرت أنك قد تموت ، فإنك تكون أحمق ، ومن المؤكد أنه سيقضى عليك . ولكنك إذا ذهبت وقد عقدت العزم على قتل غريمك بأسرع وأضمن الوسائل ، فإن كل شىء سيكون على ما يرام ، وكما اعتاد قاتل الدببة من كوستروما أن يقول لى : الدببة ؟ من الذى لا يخشاها ؟ لكن تعال وانظر إلى واحد منها وسيذهب كل خوفك ، ويصبح كل أملك ألا يهرب منك . حسناً ، هذا هو ما أحس به : إلى الغد يا عزيزى » .

فى الثامنة من صباح اليوم التالى ، وصل بيير ونسفيتسكى إلى أجمة سوكولنيكى ، فوجدا أن دولوهوف ودنيسوف وروستوف فى انتظارهما . بدا بيير وكأنه مستغرق فى أفكار لا علاقة لها بالموضوع الحالى . بدا وجهه غائراً مصفراً . لم يكن قد نام طوال الليل . نظر حوله بشرود ، وأغمض عينيه نصف إغماضة كأنه يحميهما من الشمس الساطعة . هناك عاملان استغرقاه استغراقاً تاماً : جريرة زوجته ، التى لم يعد لديه فيها أى ذرة شك بعد ليلة من الأرق ، وبراءة دولوهوف ، الذى لا يمكن اعتباره مسئولاً عن حراسة شرف رجل لا يعنيه على الإطلاق . فكر بيير : « ربما كنت قد فعلت مثله

لو كنت فى مكانه : بالتأكيد كنت سأفعل مثله : لماذا إذن هذا النزال ، هذا القتل ؟ إما أن أقتله أو يطلق النار على رأسى أو مرفقى أو ركبتى : الابتعاد عن هذا المكان ، الجرى ، أن أدفن نفسى فى مكان ما » ، كانت هذه هى الأمنيات التى خامرته . ولكنه فى نفس اللحظات التى كانت مثل هذه الأفكار تخامره فيها كان يلتفت بوجه هادئ غير مهتم بدرجة غير عادية ، مما بعث الاحترام فى نفوس الشهود الذين ينظرون إليه ، ويتساءل : « هل حان الوقت ؟ » أو « ألم نستعد بعد ؟ » .

عندما أصبح كل شىء جاهزاً ، وغرست السيوف فى الجليد لتحديد الحاجز ، ووضعت الطلقات فى المسدسات ، ذهب نسفيتسكى إلى بيير .

قال بصوت متخاذل : « أكون مقصراً فى أداء واجبى يا كونت ولا أكون جديراً بالثقة والشرف اللذين أسبغتهما على باختيارى شاهداً لك إذا لم أصارحك بالحقيقة الكاملة فى هذه اللحظة الخطيرة ، فى هذه اللحظة الخطيرة جداً . إننى أعتبر أن النزاع لم يكن كافياً ، ولا يساوى إراقة الدماء ... إنك لم تكن على حق ، لم تكن تماماً على حق ، لقد أفلت منك زمامك ... » .

قال بيير : « آه ، نعم ، كانت مسألة شديدة الغباء » .

فقال نسفيتسكى : (الذى كان مثل جميع المشاركين فى هذا الموضوع ، ومثل أى مشارك فى مثل هذه المواضيع ، غير قادر على

تصديق أن النزاع قد أدى إلى نزال فعلى) : « إذن دعنى أعبر عن أسفك ، وإننى لواثق أن خصومنا سيقبلون اعتذارك . إنك تعلم ، يا كونت ، أن الاعتراف بالخطأ أكثر نبلا من دفع الأمور إلى درجة لا يمكن تغييرها . لم تكن هناك إهانة كبرى لأى من الجانبين : اسمح لى أن أعبر ... » .

قال بيير : « كلا ، ما هذا الذى تقوله ؟ لا تهتم ... أمستعدون إذن ؟ فقط أخبرنى كيف وأين أذهب وإلى ماذا أصوب ؟ » قالها بابتسامة غير طبيعية ، فى رقتها . تناول مسدساً ، ولما كان لم يمسك بمسدس فى يده من قبل ، وهى حقيقة لم يبال أن يبوح بها ، بدأ يستفسر عن كيفية إطلاقه . قال : « آه ، نعم ، بالطبع ، أعرف ، لقد نسيت فقط » .

« لا اعتذارات ، لا شيء تماماً » ، كان دولوهوف يقول لدنيسوف ، الذى كان بدوره يبذل محاولة للتصالح ، وذهب هو أيضاً إلى النقطة المحددة .

كان المكان المختار للنزال يبعد حوالى ثمانين خطوة عن الطريق الذى تركوا فيه زحافاتهم فى رحبة صغيرة وسط غابة الصنوبر يغطيها الجليد الذى بدأ يذوب فى دفء صيف الأيام القليلة الأخيرة . وقف الغريمان عند طرفى الرحبة يفصل كل منهما عن الآخر أربعون خطوة . تركت أقدام الشهود ، أثناء قياسهم الخطوات ، آثاراً على الجليد السميك البليل ، امتدت من البقعة التى وقفوا عندها إلى سيفى

نسفيتسكى ودنيسوف المغروسين فى الأرض ، يفصلهما عشر خطوات لتحديد الحاجز : استمر ذوبان الجليد والضباب ، وعلى بعد أربعين خطوة كان من غير الممكن رؤية أى شيء . كان كل شيء جاهزاً فى ثلاث دقائق ، ولكنهم ظلوا يؤخرون البداية . كان كل واحد صامتاً .

* * *





عزيزى القارئ ..

فى الكتب أرقام ٥ و ٦ و ٢١ من الإصدار الجديد لسلاسل (كتابى)، قدمت لك الأجزاء الثلاثـة الأولى من أول ترجمة عربية كاملة أمينة لملحمة (تولستوى) الجبارة (الحرب والسلام)، التى تعد أعظم ماكتب هذا العمـلاق من عمالقـة الادب العالمى، وقد كتبها (تولستوى) خلال السنوات الخمس من ١٨٦٤ ـ ١٨٦٩، وصور فيها الصراع المحتدم بين فرنسا بزعامة قائدها المحارب الشهير (نابليون بونابرت)، وبين روسيا بقيادة البطل المغوار الجنرال (كوتوزوف)، وذلك قبل سنـوات من المعـركة الكبـرى لنابليـون فى (أوسترلتز).. وكما يتوقع من واحد من ألمع الروائيين فى العالم، فإن الحرب لاتعالج فقط كمجرد حدث درامى، وإنما أيضا كرمز لقوى اجتماعية عظمى تكافح من أجل التعبيـر عن نفسها.. وقد صور (تولستوى) فيها بشاعة المعارك الحربية، ومشاعر الجنود المتحاربين، ببراعة وقوة لانظير لها.. بحيث تترك الرواية فى عقل القارئ تأثيرا يقرب من إدراكه لأحداثها فيما لو عايشها وسط دخان المعركة ولهيب القتال، بحيث يحتفظ منها بذكريات باهتة مبهمة.

ولكن أهم انطباع تخلفه قراءتها هو الإيمان بالقدرية التى تؤثر فى مصائر أبطالها، والدور الذى تلعبه المصادفات فى جميع المعارك الحربية!

فتعال الآن نواصل قراءة الترجمة الكاملـة الأمينة لهذه الملحمة الخالدة، من حيث تركناها فى نهاية الكتاب رقم ٢١، الذى تضمن الجزء الثالث من هذه الترجمة.

حلمى مراد